

828
513

مجلد صالح الدقر
تلفون

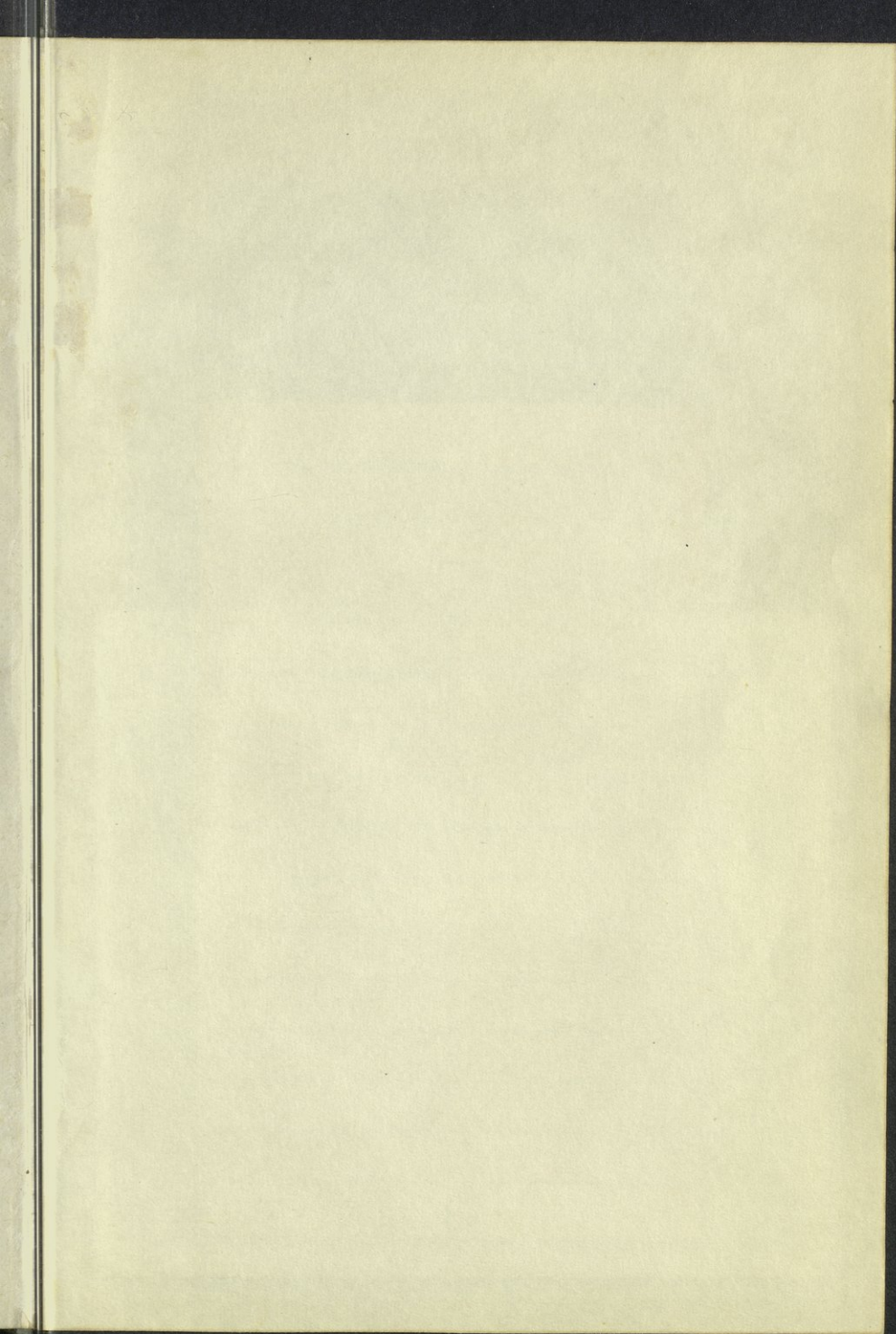
828:S13A

السعيد ، امينة ، متر .

وح. العزلة . . .

828
S13A

~~1 Oct 62~~
~~1 May 70~~



وحى العزلة

تشارلوت برونتي وإخوتها : حياتهم وآثارهم الأدبية

منازل عالی

تبریز و آذربایجان : اینستاد و روضه شریف

828
S13wA

أمانة السيد

وحى العزلة

« لبعض النساء إرادة قوية تزيح الجبال ، »
« وهذه القوة هي التي أخرجت آدم من الجنة »
ر . ولسون

منهزم الطبع والنشر
دار المعارف
بمصر

1000

مكتبة



مكتبة

مكتبة
مكتبة
مكتبة

مكتبة



الاهداء

إلى أختي كريمة السعيد . .

. . مع أخلص عبارات المحبة والولاء والتقدير

أُمينة السعيد



المجلد ١١

تكملة تاريخ مصر

في القرنين السادس والسابع للهجرة

مصر

كلمة قصيرة

في هذا الكتاب قصة أليمة لأسرة موهوبة ، عاش أفرادها منذ الطفولة في عزلة ووحشة ، وحرّموا نصيبهم من السعادة والرعاية والثقافة ، ومع ذلك هبط الوحى واقتحم عليهم عزلتهم ، فاستجابوا لنداء العبقريّة ، وقدموا إلى الأدب الانجليزى درراً ستظل أبد الدهر خالدة .

طفوله باكية

شباب قصير حزين

أدب رفيع

مجد لم يطرب أصحابه

نهاية مفاجئة مخزنة

هكذا تلخص حياة تشارلوت برونتى وإخوتها ! .

أمينة السعيد

قائمة قضاة

قائمة القضاة الذين كانوا قضاة في
شركة مصر وقضاة قضاة في
قضاة القضاة الذين كانوا قضاة في
قضاة القضاة الذين كانوا قضاة في

قضاة القضاة

قضاة القضاة

قضاة القضاة

قضاة القضاة

قضاة القضاة

قضاة القضاة

قضاة القضاة

لأسرة برونتي تاريخ قديم يرجع إلى عدة أجيال ماضية ، ولقد تذوق أفرادها المجد وعرفوا السؤدد والجاه ، ثم دارت الأيام دورتها فأدبر المجد وذهب الجاه ، وخيم الفقر وحل الشقاء . وفي منتصف القرن الثامن عشر كان هيو برونتي سليل تلك الأسرة العريقة يعيش في بلدة صغيرة بأرلندا مزارعاً بسيطاً يكتسب رزقه بكد ذراعيه ، فلا يكاد هذا الرزق يفي نفقات كوخه الضامر أو مطالب أولاده الصغار . وأمعنت الأقدار في قسوتها ، فتضاعف عدد أولاده ، وبلغوا العشرة بعد سنوات معدودات !

ولد باتريك — أكبر هؤلاء الأولاد — في اليوم السابع عشر من شهر مارس عام ١٧٧٧ ، وامتاز منذ طفولته بذكاء حاد ، وخاطر سريع ، وطموح شديد ، وإرادة حديدية ، فضلاً عن حسن فريد ، وقامة فارعة ، وبنية قوية ، وتقاطيع نبيلة جميلة . وطبيعي أن يتطلع مثل هذا الصبي الموهوب إلى مستقبل باهر وحياة واسعة ؛ فرغب عن الزراعة وفنون الحقول ، وأقبل على المدرسة بشغف شديد . وعندما بلغ السادسة عشرة انفصل عن أسرته واستقل بحياته ، وافتتح مدرسة صغيرة يتعيش منها ؛ وظل يدير

هذه المدرسة ويرعاها سنوات خمساً ، فلم تتحقق آماله ، ولم يتسع الأفق أمامه ، وظل كما هو مدرساً قروياً صغيراً .

ويقولون : إن مهنة التدريس — بمحيطها الضيق وميدانها الصغير — تقتل الطموح ، وتخمّد الآمال ؛ فإن تحقق هذا القول ، فقد تدارك باتريك برونتي الأمر قبل فوات الأوان : إذ عندما أحس أنه سيعيش ويموت فقيراً مغموراً هجر المدرسة في الحال ، واشتغل مربيّاً في أسرة فاضلة . وعلى مر الوقت عاوده السأم ، وتحرك طموحه من جديد ، فاتخذ خطوة حاسمة لتهديب مواهبه وتنمية مداركه ؛ فهجر العمل والامتحان ، وعاد حياة التلمذة ، والتحق بجامعة كمبردج وهو في الخامسة والعشرين من عمره .

ولم يتوصل أحد من المؤرخين إلى معرفة حقيقة البساط السحري الذي بفضلِه انتقل باتريك برونتي من القرية إلى الجامعة : فوالده مزارع فقير لا يكتسب ما يفي بمطالب أسرته الكبيرة ، وراتب باتريك ضئيل لا يسمح باقتصاد جزء من نفقات كمبردج الباهظة . وتساءل الناس طويلاً ، وعجبوا كثيراً ، فما أفادهم التساؤل والعجب شيئاً في كشف الوسيلة التي مكنت الارلندي الوسيم من النهوض بحياته ومستقبله . ولم يشأ هو أن يوضح الأمر أويلفسر الغز ، واكتفى بأن جمع متاعه في صمت ، وغادر مسقط رأسه إلى الأبد ؛ وبعد سنوات أربع تخرج بنجاح ، ورسم قساً في أبراشية وذر فيلد بأسكس .

وهكذا هبط على وذر فيلد قس جميل الشكل ، مهيب الطلعة ، أنيق

الهندام ، فحققت قلوب النساء ، واجتمعن حوله يخطبن وده ، ويتنافسن في
نيل رضاه . وزاد في نجاحه ما أبداه من جرأة وشجاعة ، وما عرف عنه من
جد ونشاط ؛ ولم يمض وقت طويل حتى أنشب الحب أظافره في قلبه ،
فسقط صريع هوى ماري بيردر الحسنة ؛ وتقدم للزواج منها ، فقبلته فرحة
مقبطة . ويقال : إنه أمطرها وابلا من الخطابات الحارة الملتهبة كانت
تقرؤها ثم « تستسلم بعدها إلى تفكير شديد » !

ونجاة قلب بروتي للحبيدة ظهر الجن ، ففسخ الخطبة دون مبرر ، وهجر
المكان وانتقل إلى يوركشير ، واشتغل قساً في أبراشية هارتشد . وهبط
الوحي عليه هناك ، فنظم الأبيات وقرض الشعر ، وطبع قصائده في مجلدين ،
ولما لم يقبل أحد عليها طلق النظم والقريض ، ولم يعد إليهما بعد ذلك .
وفي خلال إقامته عرف ماريا برانويل ، فأحبها وتعاهدا على الزواج .

وماريا برانويل هي الابنة الثالثة لتاجر فاضل في بنزانس ؛ واشتهر
والدها طوال حياته باليسر ، وطيب العنصر ، وكرم الأصل ، مما سهل له
ولأسرته سبيل الاتصال والاختلاط بخيرة أفراد المجتمع . ونشأت الفتاة
في جو من الرخاء والاحترام ، وعند ما بلغت سن الشباب أسرت القلوب
بتقواها الصادقة ، وأخلاقها الكريمة الهادئة ؛ ولم تكن ماريا على قسط
كبير من الجمال ، ومع ذلك تجمع حولها الرجال ، وأعجبهم منهم حياء شديد ،
وأناثة طاغية ، وجسم صغير نحيل . وجاءت الأنسة الصغيرة إلى هارتشد
في زيارة قصيرة ، فرآها القس الأيرلندي الوسيم ، واستسلم للحب ثانية ،
ودعاها لأن تقاسمه حياته ، فقبلت في الحال .

وأصاب برونقى الهدف هذه المرة : فماريا فتاة فاضلة كريمة الأصل
عرفت منذ طفولتها بالحكمة والتعقل ، ولذلك احتلت بين أفراد أسرتها
مكانة ممتازة . قالت فى خطاب منها إليه :

« منذ سنوات وأنا سيدة نفسى ، ولا رقابة على من أى نوع ؛ وقد
اعتادت شقيقائى اللواتى يكبرننى بسنوات عدة ، وكذلك أمى العزيزة أن
يسترشدن برأى فى كل أمر هام ، ومن النادر أن يتشككن فى حكمى
أو تصرفاتى .

« قد تهمنى بالغرور لهذا القول ، ولكن ثقب أنى لا أرمى إلى تفاخر
أو مباهاة ، وفى مناسبات عدة وجدت فى موقفى هذا ضرراً ومضايقة ؛
ومع أنى — والحمد لله — لم أندفع يوماً إلى الخطأ إلا أنى كنت أشعر دائماً
بحاجتى الشديدة إلى مرشد وقائد . . . »

ولاشك أنها وجدت فى خطيبها القس ذلك المرشد الذى تبحث عنه :
فهو راجح العقل بحيث تستطيع أن تطأطأ رأىها لرأيه احتراماً ، وهو
أيضاً قوى الجسم طويل القامة نحس إلى جواره — وهى المرأة النحيلة
الضئيلة — بالقلة والضعف . وخب حبه فؤادها ، وملأ نفسها بالرضا
والسعادة ، فلم تحاول أن تخفى حقيقة مشاعرها عنه ، بل جعلت تصف تلك
المشاعر والإحساسات فى خطابات ممتعة رقيقة تدل على روحها الشاعرة ،
وأسلوبها الأدبى السلس ، وإخلاصها العميق الفطرى ، وشغفها بذلك القس
الأنيق . قالت فى خطاب إليه :

— « واعترف صراحة أن تصرفاتك الحكيمة ، وما رأيته منك ، وما سمعته عنك يملأ قلبي بتقديرِكَ الصادق ، واحترامك العظيم ؛ فتق أنك لن تندم يوماً على ثقة أودعتهن ، وسيكون هدفي في الحياة دائماً أن أحتفظ برأيك الطيب وحسن ظنك في »

وفي خطاب آخر تقول .

— « لو عرفت إحساساتي وأنا أكتب هذا الخطاب لأشفقت على ، فأنا أريد أن أسجل الحق لأرضيك ، ومع ذلك أخشى أن أقول أكثر مما يجب »

وهكذا ظل الحبيب يتراسلن ، ويحلمان بسعادة دانية ، وحياة قريبة راضية ؛ ودلت الشواهد على أنهما لا يبالغان كثيراً في هذه الأحلام : فهي تملك ثروة يبلغ إيرادها خمسين جنياً في العام ، فإذا أضيف هذا المبلغ إلى راتبه توافرت ضروريات بيتهما الزوجي المنتظر . فضلاً عن أن ماريا تملك الكثير من الثياب الفاخرة ، والرياش الجديد ، والأدوات المنزلية الجيدة ؛ فهي إذاً في غير حاجة إلى تبديد نقودها في تأثيث البيت وإعداده . وأرسلت إلى بنزانس تستحضر هذه الأشياء ؛ ولكن تجرى الرياح بما لا تشتهي السفن كما يقال : ففي ذات يوم جلست الخطيبة تقرأ في لهفة وإعجاب قطعة نثرية ألفها الحبيب الوسيم ، ورسم فيها صورة خيالية لسفينة تتحطم بين الأمواج ، وبينما هي مكبة على ذلك إذ وصلتها رسالة من شقيقتها تقول : إن السفينة التي أبحرت وهي تحمل الحاجيات الثمينة المرتقبة ، قد

تخطمت على شواطئ ديقونشير ، وابتلعها اليم بما تحمله . وكان الأقدار قد أرادت أن تتجسم القطعة الأدبية التي ألفها باتريك بروتني ، لتعيد خطيبته قراءتها وهي تذرف دمعاً هتوناً !

وعلى الرغم من الحادث المؤسف تم الزواج في اليوم التاسع والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٨١٢ ؛ وبهذا الزواج غادرت ماريابرانويل مسقط رأسها ، ولم تعد إليه بعد ذلك ؛ ولكنها تركت وراءها أثراً جميلاً عظيماً ظل واضحاً حياً في قلوب الأصدقاء والأقارب سنوات بعد وفاتها ؛ فلقد أسرتهن بأخلاقها الفاضلة ، وصفاتها النبيلة ، وتطلع الكل إليها سيدة عالية لها من المواهب ما تفوق به الشخص العادي ؛ وبدأت حياة جديدة قصيرة مليئة بالآلام ، لم يتحقق خلالها شيء من الأحلام الماضية البهيجة ، وقدر عليها أن تنجب أكبر عدد من الأطفال في أقصر مدة ممكنة .

وعاش الزوجان في أبراشية ديوزبري بهارتشد ؛ وفي العام التالي للزواج رزقا بابنتهما الأولى مارياب ، ولم يمض عام آخر حتي ولدت الابنة الثانية اليزابث . ولم يكن مستر بروتني شغوفاً بالأطفال ، ولذلك ضايقه أن يقتحم حياته كل عام مولود جديد ؛ فاعتكف في مكتبه ، وعاد إلى أحضان الأدب عسى أن يخفف بلواه ، وألف كتاباً جديداً اسمه (كوخ الغابة أو فن السعادة والغنى) . وطبع هذا الكتاب ونشر سنة ١٨١٥ ؛ وفي العام نفسه رقى وانتقل إلى أبراشية برادفورد في ثورتون .

وكانت الحياة في ثورتون غيرها في هارتشد ؛ فالبلدة مليئة بالبيوتات

الفاضلة الراقية ، ومستوى الثقافة أعلى كثيراً ، وباستطاعة قس ذكى طموح أن يجد فيها من الأصدقاء والصديقات ما يملأ فراغ حياته ، وما يشبع أطماعه السياسية والأدبية . وفي هذا الجو الجليل سعد مستر بروتني ؛ وترك زوجته في دار الأبراشية منهكة في إنجاب الأطفال ، وجعل يرتاد المجتمعات ويقبل الدعوات إلى حفلات الشاي والعشاء ، وتصادق هو ومستر چون فيرث وأخته الشابة الأنيقة اليزابث . وفي كل مساء يجلس في دارم يتحدث بصوته الرخيم ، فترقبه اليزابث بقلب واجف وإعجاب شديد . أما مسز بروتني فقد قنعت بالعيش بين جدران الأبراشية تقوم بمهمتها في نشاط تام ، وفي عام ١٨١٦ أنجبت ابنة ثالثة هي تشارلوت ، وفي عام ١٨١٧ ولدت صبياً اسمه برانويل ، وفي عام ١٨١٨ أتت بأميلي ، وبعدها بسنة ونصف ظهرت الى عالم الوجود الابنة الأخيرة آن ! ولم يقو جسد مسز بروتني النحيل على تحمل هذا الجهد الشاق ، فذبل وجهها ، وانحطت صحتها ، وظهرت عليها بوادر مرض خطير .

ولم تمض شهور معدودات على ولادة آن حتى نال مستر بروتني آخر ترقية في حياته العملية ، وعين وافهاً لأبراشية هاوارث بالقرب من برادفورد ولذلك اضطر إلى هجر ثورتنون المرحبة بالهيجة . وحرمته هذه الترقية مجتمعاً ذكياً ومجالاً علمياً واسعاً ، وألقت به وسط جماعة من المزارعين الخشنيين والعمال الجهلاء .

في يوم من أيام شهر مارس عام ١٨٢٠ وقفت عربة كبيرة أمام أبراشية هاوارث تحمل أفراد أسرة الوافه الجديد . وهبط منها السيد بروتى في عظمة وجلال كأنه ملك يغادر عرشه ، ثم تبعته زوجته النحيلة ، ومن خلفها ستة أطفال لم تبلغ أكبرهم السابعة من عمرها بعد . ووقف الكل لحظة يتأملون الوحشة السائدة ، ويوازنون في صمت بين هذا المكان الخرب الرهيب وبين ثورتون المرحه البهيجة ؛ ولكن أحداً لم يجرؤ على النطق بكلمة تفضح مايجول بذهنه ، خشية إغضب رب الأسرة الصارم الذى لايسمح لأفراد مملكته الصغيرة بتعليق أو اعتراض ؛ ثم دخلوا إلى دارهم الجديدة أو إلى مفاهم بعبارة أوضح ، ليعيشوا ويموتوا بين جدران السميكة في معزل عن المجتمعات والناس .

وتقع قرية هاوارث فوق تل مرتفع شديد الانحدار ، وعلى مبعده منها تقوم الابراشيه وحدها كقلعة صغيرة من قلاع العصور الوسطى ، وتطل من ناحية على مقبرة الكنيسة ؛ ومن الناحية الأخرى على حانة بعيدة وضعية

هى حانة « الثور الأسود » ، وتحيط بها براري^(١) يوركشير الواسعة من كل الجهات ، فتعزلها عن العمران ، وتنتشر عليها ظلاً من الكآبة والوجوم .
 ودار الابراشية بيت حجري عتيق : جدرانها سميكة رطبة ، وسقفه منخفض ، ونوافذه صغيرة ضيقة لاتسمح بدخول الشمس أو مرور الهواء .
 وهى تتكون من طبقتين تشمل الأولى مكتب الوافه وقاعة أخرى تستعمل للطعام والجلوس . أما الطبقة الثانية فتحتوى على أربع حجرات : إحداها صغيرة ضيقة خالية من الوسائل الصحية ، وليس فيها موقد يبعث الدفء بين جدرانها الرطبة ؛ وفي هذا المكان الكريه حشر الأطفال الستة ليناموا ليلاً ويلعبوا نهاراً .

وشتاء هوارث لانهاية له . فالتلوج تتساقط طيلة العام ، والأمطار تنهمر معظم أيام السنة ، والرياح والأعاصير تهب دائماً ، وتضرب الجدران الحجرية فتتردد البرارى صداها فى أنين طويل . وقد يحدث فى بعض الأحيان أن تكف الأمطار ، وتهدأ الرياح ، وتنقشع الغيوم ، فيهب نسيم رقيق ، وتشرق الشمس ، ولكن مثل هذه الأيام نادرة لا يتمتع الناس بها إلا بضعة مرات كل عام .

وهوارث مرتع خصيب للأمراض والحميات ، وفي كل موسم يطبق عليها داء جديد يفتك بأهلها ، فتكثر المآتم وتتعدد الجنازات ، ويقال إن

(١) اخترنا فى هذا الكتاب كلمة براري للدلالة على المورز — Moors —
 لأنها الترجمة الصحيحة للكلمة الانجليزية وإنما لوجود بعض الشبه بينهما . والمورز أراضى واسعة قاحلة تنمو بها بعض الحشائش القصيرة وتوجد فى مقاطعة يوركشير بانجلترا .

عدد ضحايا الحميات يبلغ مائة وخمسين شخصاً كل سنة ، وهو عدد كبير إذا عرفنا أن سكان البلدة ستة آلاف فقط .

وأهل هاوارث فقراء إلى حد ما : تعمل كثرتهم في الطواحين الهوائية التي تنتشر في هذه البقعة ؛ وبالقرية حانوت صغير لبيع الضروريات ، ولكن شراء الكتب والعقاقير كان يتطلب السفر إلى بلدان أخرى . وهم خشنون بطبعهم لا يحبون من يتدخل في شئونهم ولو كان وافه الأبراشية ، ولذلك تصادمواهم والقساوسة السابقون ، وانتصروا عليهم ، واستطاعوا تغييرهم واحداً إثر واحد في وقت قصير .

وفي هذا المكان الموحش الكريه استقرت الحياة بمستربروتني وأسرته ، فتسلم مقاليد منصبه في صمت ، وقام بواجبات عمله في سكون ، ولم يقصر في واجب منها ، ولكنه في قرارة قلبه كان يحتقر أهل المنطقة لجهلهم وخشوتهم ويحدهم دونه مقاماً وذهناً ، ولذلك بقي على مبعدة ، ولم يعقد أواصر صداقات جديدة مع أحد ؛ ووافق سلوكه مزاج أهل المنطقة فاحترموه وبجلوه .

ولكن شعور الناس نحو الوافه الجديد لم يشمل الحب ، فقد كان شجاعاً جريئاً ينحاز في السياسة والاجتماع إلى الرأي الذي يؤمن بصحته ، ولا يهمه بعد ذلك شعور معارضيه . وفي عهده اعتصب عمال الطواحين الهوائية لخلاف بينهم وبين رؤسائهم ، فأخذ المستربروتني جانب المعتصين لأنه كان يؤمن بعدالة قضيتهم . وساعدهم ليعبد عنهم غائلة الجوع والفقر ، وبذلك أثار كراهية أصحاب رؤوس الأموال حتى تهددت حياته ، فاضطر إلى الخروج

من بيته مسلحاً ، واعتاد حمل السلاح منذ ذلك الوقت ، ولم يتركه بعد زوال الأسباب التي دعت إليه . ولم يكن التسليح مما يناسب الكهنوت ، ولكن الوافه الجديد كان بطبعه جندياً مجاهداً لا قسيساً وادعاً .

وكان مستبرونتي داخل بيته لا يقل جهوداً عنه خارجه : ففي علاقته مع زوجه يتطلب الخضوع التام ، لأن المرأة في اعتقاده مخلوق وضع حرمه الله معظم ميزات الرجل ، ولذلك وجب عليها أن تعيش لتطيع ، لا لأن تأمر . ولم يكن في الواقع يفهم النساء ، أو يبذل أى مجهود في سبيل فهمهن ، فأخذهن بظاهرهن ، ولم يسع يوماً إلى التغلغل فيما وراء هذا الظاهر ، ليكشف عما يعمل في القلب من آلام وأحزان ؛ وما دامت زوجه صامئة فهي راضية ، وما دامت لا تشكو فليس لديها ما تشكو منه .

ولم يكن مستبرونتي يحب الأطفال ، أو يشغف بهم ، ولذلك ضايقه أن تفرض عليه زوجه ستة منهم في وقت قصير ، فكره الزواج ، وحقد عليه وحمله تبعات متاعبه ومضايقاته ؛ واعتبر جلوس الأطفال حوله مضیعة للوقت فاعتكفوا بعيداً ، وهم يحملون له رهبة في غير حب . وكان يحب أن يربي هؤلاء الأولاد تربية خشنة تقتل في نفوسهم حب الترف سواء في الطعام أو الملبس ؛ ويقال إن صديقة للأسرة بعثت إليهم هدية من الأحذية الصغيرة الملونة ، فألقى بها إلى نيران الموقد ، حرصاً على زهد أولاده وتبتليهم ، وهكذا فعل بثوب حريري لزوجه ! ولم يكن يسمح باللحم على مائدته ، ويقتصر طعام أولاده على البطاطس والخضروات ، مما أضعف أجسامهم فماتوا جميعاً في

شرح الشباب . وإنصافاً لمستربورنتي نقول : إذا صح أنه قد فعل ذلك حقيقة ، فلم تكن القسوة دافعه ، بل المبدأ والعقيدة .

ومن سوء حظ الأطفال أن اشتد المرض بمسز بروتني ، وظهرت عليها عوارض السرطان ، فلزمت فراشها متألة ، وأحست بخطورة حالتها واقترب منيتها ، فأقصت الأطفال عنها ، حتى يعتادوا فراقها تدريجاً ، واقتصرت على رؤية زوجها فقط ، فتضاعف بؤسهم ووحدهم ، وشعروا أنهم غرباء متطفلون في منزلهم ، وانقضت أيامهم بين جدران الحجرة الصغيرة الضيقة ، واقتصرت نزهتهم على السير وحدهم في البراري الواسعة الممتدة .

وظلت مسز بروتني إلى النهاية عطوفة رفيقة ، لاتضيق من حولها بكثرة المطالب ، وتحتمل آلامها الجسيمة في صمت ، ودون تذمر أو شكوى ، ولم تفارق الابتسامة ثغرها ، ولم يخفف الداء حدة حبها الشديد لقسمها الصارم الوسيم . وبادلها مستر بروتني العطف والحنان ، وخدمها دون ملل أو كلال سواد الليل وبياض النهار ، أملاً في شفاؤها ، وإنقاذ حياتها ، فلما ماتت في شهر سبتمبر عام ١٨٢١ ، وتركته وحيداً مع جيشه الصغير اشتد به الحزن ، وزاد حقدًا على الزواج ، وعلى البلهاء الذين يقعون في شباكه ؛ كما أصيب بعسر هضم شديد ، اضطر معه إلى مضاعفة اعتكافه ، وحرمان أولاده من الجلوس معه أثناء تناول الطعام .

وهمس الناس في حانة « الثور الأسود » وانتشرت الاشاعات في هاوارث بأنها ماتت محطمة القلب من سوء المعاملة ، وصدق الناس هذه

الأقوال الكاذبة وتناقضوها ، ووصلت إلى آذان صغارها ، فأطرقوا واجبن ،
وازدادوا جوداً وابتعاداً عن والدهم .

ولو أن القدر أمهل مسز بروتى ، ومكنها من تربية أولادها ، والعناية
بهم ، لتضاعفت كنوز الأدب الأنجليزى ، وتغير تاريخ حياة أولادها
المنكوبين : فهدوءها العظيم ، ورقتها الشديدة ، وعقلها الراجح ، وعينها
الثاقبة كانت — ولاشك — تمكنها من الحد من قسوة تشارلوت ،
وانتقال برانويل من الفساد الذى تمرغ فيه ، ومن إنقاذ أميلى من الوحدة
النفسانية التى ذهبت بإيمانها وسعادتها .

أصبحت الحياة بعد وفاة مسز بروتى لا تبعث على السعادة ، أو تدعو
إلى التفاؤل ، فالأطفال الستة فى وحدة دائمة يقضون أيامهم بين الحجرة
الصغيرة والبرارى الواسعة . وكانت ماريا — أكبرهم — فى الثامنة من
عمرها صامته هادئة مما لا يناسب سنها ، لها من الذكاء والحكمة ما لا يتوافر
فى الشباب ، ولعل السبب فى ذلك أنها اضطرت فى سن مبكرة الى معاونة
أمها فى الأعمال المنزلية ، والعناية بإخوتها خلال مرضها ، وبعد وفاتها .
وماريا فتاة نحيلة الجسم سقيمة البنية ، وكانت كبقية إخوتها لم تتمتع بطفولة
حقة ، وأقتصرت حياتها على المحيط الصغير الذى تعيش فيه ؛ ووجد
الأطفال فيها خير عوض عن الأم ، فحنت عليهم وغرتهم بعطفها وحبا
ورعايتها ، وفى كل صباح تقرأ لهم جريدة يومه ، وتشرح لأذهانهم الصغيرة
مشاكل السياسة والبرلمان . وفى كل مساء تقص عليهم قبل النوم قصصاً

مسلية يحوك خيوطها خيالها الخصب ، وكان الكثير من هذه القصص
خفيفاً مرعباً ترتجف له قلوب الاطفال ، ولا يخفف من وقعه غير وجودها
بينهم . وعندما يصفو الجو وتشرق الشمس تصحب ماريًا اخوتها إلى
البرارى الواسعة ، فتنتطلق روحهم من عقالها ، فيجرون ويغنون ويمرحون
ويحنون على كل زهرة ، ويداعبون كل طير ، ويتأملون كل جدول رقيق .

أحسن مستر برونتى بوحشة شديدة بعد وفاة زوجته ، فاتخذ من ابنته
ماريا مؤنسة له ، يقرأ معها الجريدة الصباحية ، ويناقشها فى شئون السياسة
والاجتماع ، ويقص عليها قصصاً فى المغامرات والمخاطرات والحروب ، وكلها
أحاديث لا تناسب فتاة فى الثامنة من عمرها ، ولكن الوافه لم يحاول أبداً
أن يخفض الى مستوى الأذن الصغيرة التى تصغى اليه ، وظلت هذه عادته
طيلة حياته ، فاعتاد أولاده طرق أمثال هذه الموضوعات فى طفولتهم . ولم
تملأ ماريًا الفراغ الذى يحس به ، ففكر فى الزواج ثانية ، وأرسل يخطب
الآنسة اليزابث فيرث صديقه أيام ثورنتون ، ولكنها كانت قد عاهدت
قساً آخر على الزواج . وجعل يفكر فىمن يشرى لها حياته ، وعادوه الحنين
الى حبيبته الاولى ماري بيردر ، وكتب اليها يعتذر عما مضى ، ويؤكد
أن أخلاقه قد تحسنت على مر السنين ، ولذلك يريد إصلاح خطئه القديم
وما سببه لها من آلام بالزواج منها الآن . وأجابت الحبيبة القديمة تقول إنها
تحمد الله الذى حماها من مصير أسود ، كان ينتظرها حتماً ، لو أنها تزوجته

ومع ذلك فهي لا ترجوه غير الخير والسعادة ! وأرسل يستعطفها ثانية ،
ولكنها أصمت أذنيها دون رجائه ، ولم يحاول بعد ذلك الزواج ، وكتب
إلى مس برانويل شقيقة زوجها الراحلة ، يشرح لها حاجة الأطفال إلى
الرعاية والعناية ، ويدعوها إلى هاوارث لتعيش معهم ، فقبلت الخالة الدعوة
من فورها ، وحزمت أمتعتها وتركت دارها المحبوبة ، واتجهت إلى هاوارث
تلبية لنداء الواجب .

ساد الأبراشية جو من المرح لم يهد من قبل ، وقد علم الأطفال قرب
 قدوم خالتهم للعناية بهم ، ففرحوا و طربوا ، وتخيلوا سعادة دانية ، وعطفاً
 يشملهم جميعاً : فهي أخت والدتهم ، ولذلك تاملها - بطبيعة الحال -
 رقة وتقديراً للأمر ، وستعوض بحنانها ما فقدوه ، ويعمرهم من حبها ما هم
 في حاجة إليه ، وبفضل وجودها ورعايتها ستقلب هاوارث الكئيبة الحزينة
 إلى نعيم مقيم ؛ وعند ما حضرت استقبلها الكل في حرارة وترحيب .

وكانت الخالة عانساً في الأربعين من عمرها ، صغيرة الجسم ضئيلة الحجم
 لها شخصية قوية ، وضمير حي ، وقلب حساس ، ولكنها ضيقة التفكير
 خشنة اللسان لا تستسيغ روح العصر الذي تعيش فيه ، ولا تؤمن إلا بتقاليد
 عرقها وهي بنت عشرين . وما كادت تستقر في الأبراشية حتى امتلأ قلبها
 بالكراهية لمدينة هاوارث ، ومن يعيشون فيها ، وكلما قايت بين هذا المكان
 ومسقط رأسها ازدادت كراهيتها وتضاعف مقتها ؛ فبنزاس تختلف تماماً عن
 هاوارث : شمسها ساطعة ، وجوها رائق ، وأمطارها قليلة ، وشتاؤها مقبول
 وفي الربيع والصيف تنمو الأعشاب الخضراء وتزينها مختلف الزهور والورود ،

أما هوارث فلا نهاية فيها للأمطار والرياح والجليد . وتفقدت بين الجدران
الحجرية الرطبة المجتمع الأنيق الذي اعتادت أن تختلط به ، والأصدقاء المثقفين
المهذبين الذين عرقتهم وأحببتهم منذ سنوات ؛ وطبيعى أن تجد بين ماضيها
القديم الأنيق وحاضرها الموحش الكئيب فارقاً رهيباً ليس من السهل
على من جاوز الأربعين أن يقبله أو يستسيغه . ولما كان البيت كله من
الأحجار أصبحت في رعب دائم من أن تصاب بالروماتزم ، ولذلك اعتكفت
في حجرتها ترقب أشعة الشمس إن جاءت . وهكذا حرم الأطفال صحبتها
وإن فرضت عليهم هذه الصحبة بضع ساعات من أجل تعلم الحياكة
والتطريز .

وكان الأطفال مصدرراً آخر لمتاعب الخالة ، فهم خمس بنات وصبي
عاشوا دائماً دون رعاية أو رقابة ، فاعتادوا الحرية في تصرفاتهم ، وعدم
المبالاة في حياتهم ، ومعلوماتهم جميعاً مقصورة على موضوعات لا تقرأها
ولا تحبذها ، فهم يقضون الصباح كله تقريباً في قراءة الجرائد ، ومناقشة
شئون السياسة والبرلمان ، ويحفظون عن ظهر قلب أسماء رجال المجتمع
البارزين ، وما يقومون به من مشروعات وأعمال ؛ أو يؤلفون قصصاً
تمثيلية يخرج منها دوق ولنجتون — وهو معبود تشارلوت — أبداً ظافراً
منتصراً ؛ فضلاً عن أن ماريانا دائماً الإهمال ، واليزابث دائماً التأمل ، ولتشارلوت
نظرات نفاذة ولسان جارح ، وإميلى على صمتها قوية الشكيمة مرهفة
الإحساس ، وأما آن فقد كانت أصغر جداً من أن تظهر عيوبها الخلقية .

وخرجت الخالة من دراستها بنتيجة واحدة ، وهى أن برانويل ذا الشعر الأحمر الجميل ، والعيون الساحرة ، والذكاء النادر أفضل الجميع ، فأفرطت فى حبه والعطف عليه ، وبالغت فى تدليله وإكرامه ، وبادلها الصبي شعورها وإحساسها ، وظل محباً وفيها لها حتى النهاية .

وقررت الخالة أن تقوم أعوجاج الفتيات ، وتوجهن التوجيه الصحيح ، والتوجيه الصحيح فى نظرها هو تعلم الحياة وإتقان التطريز ، لا التحدث فى شئون السياسة والبرلمان ، فقرضت عليهن بضع ساعات كل يوم ، يجتمعن خلالها فى حجرتها يتعاملن على يليها أسرار الفنون النسوية . وكانت تعاقبن فى هذه الحجرة ، وتؤدبهن بشتى الطرق ومختلف الوسائل ، ويقول النقاد : إن تشارلوت بروتى عند ما كتبت فيما بعد قصتها الخالدة « جين أير » رسمت خالتها فى شخصية مسز ريد التى كانت تجلد الفتاة اليتيمة فى حجرتها الرهيبة .

ولكن مستر بروتى على اعتكافه وجهوده لم يكن يتفق معها فيما يختص باهتمام أطفاله بشئون السياسة والبرلمان ، بل يجد فى ذلك الاهتمام بؤادر ذكاء ونبوغ ، فجعل يرقب أولاده خلال وقت اللعب ، فيجد أن التسلية الدائمة للصبي والفتيات هى تأليف الروايات السياسية والتاريخية . ولاحظ فى هذه الألعاب بشائر مواهب عظيمة لا تتناسب مع سنهم الصغيرة ، فقرر أن يختبر هذه المواهب ، وخشية أن يمنهم الخجل من التحدث فى حضرته بصراحة جلب قناعاً ، وأمرهم أن يضعوه على وجوههم بالتناوب ، ثم يجيبوا عن

الأسئلة التي يلقيها ، وبدأ بأصغرهم آن ، وكانت في الرابعة من عمرها :
برونتي : آن ... ما أهم ما تحتاج إليه طفلة مثلك ؟
آن : السن والتجربة .

وجاء دور إميلي وكانت في الخامسة من عمرها :
برونتي : إميلي ... ما أنجع وسيلة استعملها مع شقيقك برانويل
عند ما يعبت ؟

إميلي : ناقشه منطقياً ، وإن لم يصغ إلى المنطق فأجلده .
وتلاها برانويل وكان في السادسة من عمره :
برونتي : برانويل ... ما أحسن وسيلة لتقدير الفرق بين مواهب المرأة
ومواهب الرجل ؟
برانويل : تقدير الفرق بين جسديهما .

وأعقبته تشارلوت وكانت في السابعة :
برونتي : تشارلوت ... ما أفضل كتاب في العالم ؟
تشارلوت : الإنجيل .

برونتي : والكتاب الذي يليه ؟
تشارلوت : كتاب الطبيعة !

ثم سأل اليزابث وكانت في الثامنة ؟
برونتي : اليزابث ... ما أحسن منهج لتعليم المرأة ؟
اليزابث : الذي يمكنها من إدارة بيتها إدارة طيبة .

وأخيراً جاء دور ماريا وهى فى الحادية عشرة :

بروتى : ماريا ... ما خير وسيلة لتمضية الوقت ؟

ماريا : قضاؤه فى الاستعداد لخلود سعيد .

وتركت تلك الإجابات السديدة فى ذهنه أثراً عميقاً ، وأقنعت أنه لأطفاله الصغار مواهب يجب ألا تهمل ، فقرر مضاعفة العناية بتعليمهم ، وجعل يبحث عن مدرسة تناسب موارده الصغيرة ، فاهتدى إلى مدرسة « كوان بريدج » الداخلية ، التى افتتحت أخيراً لبنات القساوسة الفقراء ، فأدخل فيها ابنتيه ماريا واليزابت فى شهر يوليو عام ١٨٢٤ .

افتتحت مدرسة « كوان بريدج » — كما ذكرنا سابقاً — لتعليم بنات القساوسة الفقراء ، ولذلك كانت أقرب إلى ملجأ منها إلى مدرسة؛ فمصرفاتها أربعة عشر جنيهها فى العام يدفعها الأب أجراً للتعليم والمسكن ، وثنماً للطعام والملبس . وطبيعى أن لا يكفى هذا المبلغ جميع تلك النفقات ، ولكن القس وليم كورس ويلسن — صاحب المشروع — كان يعتمد على تبرعات الخيرين وذوى البر والإحسان . وطاف أنحاء البلاد ، فلم تندكف أحد بسخاء ، وكانت النتيجة أن اضطر إلى الاقتصاد الشديد ، ليمكن من الاستمرار فى مشروعه .

ووجد مستر بروتى أن نفقات « كوان بريدج » الصغيرة تتفق مع موارده المحدودة ، فأرسل إليها ابنتيه ماريا واليزابت ، وبعد ذلك شهرين

أدخل فيها الاثنتين الأخريين تشارلوت وإميلي . وبقي برانويل مع آن في الأبراشية يتلقيان العلم على يدي والدهما . وكان الصبي في الواقع أحق الجميع بدخول مدرسة ، فلقد حبه الطبيعة بمواهب خارقة : ذكاء حاد ، ولسان فصيح ، ومخيلة واسعة خصبة ، وحسن يسترعى الأنظار ، وإذا اقترن الذكاء بالحسن وجب توجيه صاحبهما في الحياة توجيهاً صالحاً ، وإلا انعكست الآية وأنت بغير النتيجة المرجوة ؛ ولكن مستر برونتي على حكمته واتزانه لم يتبين هذه الحقيقة ، واعماه فخره بابنه الوحيد عن الخطر الذي يهدده ، وقرر أن يقوم هو نفسه بتعليمه وتثقيفه ، ليعمد منه للمجتمع درة فريدة .

وكانت مدرسة كوان بريديج ، عبارة عن مجموعة أكواخ صغيرة قدرة لم تراع في بنائها الوسائل الصحية الضرورية لكل مكان يجمع نفراً كبيراً ؛ فضلا عن أن القس ولیم كورس ويلسن كانت له ثقة عمياء ببعض موظفيه ، فاستغلوا هذه الثقة لصالحهم فقط ، وتحايل الطاهي على السرقة بكافة الوسائل ، فأنحط مستوى الطعام إلى حد بعيد . وفي كل يوم تجلس التلميذات إلى المائدة جوعاً ، فيقدم لهن لحم أزرق رائحته النتنة تملأ أرجاء المدرسة ؛ وفي يوم السبت يتناولن فضلات الأسبوع السابق ، وهي فضلات دب الفساد فيها لعدم حفظها في مكان صحي . وقد يحدث أن تفاجئن المدرسة يوماً بكعك مصنوع من الأرز ، ولكن الطاهي يعجن هذا الكعك بمياه الأمطار المتساقطة من الميازيب ، والحملة بمختلف أنواع الأتربة والأفذار ! وطبعي أن تعاف نفوس الفتيات هذه القاذورات ، فينصرفن عنها باشمئزاز ،

ويفضلن أن يبتن على الطوى فى كثير من الأحيان ، فأنحطت الصحة العامة بين التلميذات ، وزادت ماريا بروتى نحولا ، وتضاعف ذبول شقيقتها اليزابث ؛ ورأت الناظرة الحالة الخطيرة ، فقلقت وتألمت ، ولكنها لم تجرؤ على الاعتراض فى حضرة القس ، لأنه كان يثق بالطاهى ثقة لا تقبل الشكوى أو الاعتراض .

وفى أيام الأحاد كان يتحتم على التلميذات الذهاب صباحاً للصلاة فى كنيسة (تانز تول) التى يرأسها القس ويلسن ؛ وتبعد الكنيسة عن المدرسة بما يزيد على ميلين ، والطريق بين الاثنتين طويل متعرج ، تتخلله منخفضات ومرتفعات ، ولا تقوم به أشجار عالية تحمى السائر من شر الأمطار والرياح . وتقطع الفتيات هذه الرحلة الشاقة مرة كل أسبوع ، وتوزع عليهن شطائر صغيرة ، لاستحالة العودة فى وقت الغذاء . واستطاعت تشارلوت وإميلى الاحتمال ، ولكن ماريا واليزابث ازدادت ضعفاً ونحولا ، وأصابهما سعال حاد كان نذير مرض صدرى قاتل .

ومستر كورس ويلسن قس من نوع عجيب ، لا ينتمى إلى روح المسيحية الحقة من قريب أو بعيد ، فأخلاقه الخشنة ، وقلبه القاسى ، وتفكيره الضيق لا تناسب ثياب الكهنوت التى يرتديها . ونحافى معاملته للفتيات منحنى التهديد الدائم بالجحيم والنار والعنة الربانية ، ورسم الله لهن فى صورة وحشية تقشعر لها الأبدان : فكذبة واحدة من طفل صغير تكفى لإثارة الرب ، وشدة غضبه ، فيبعث إلى الكاذب بصاعقة تقتله ، أو بميته أخرى فجائية بشعة تمثل به ، وتجعله عبرة لمن يعتبر . ولا ينتهى العقاب بذلك ،

بل ترتفع روح الطفل إلى السماء ، لتتقلب بين مختلف أنواع النيران والجحيم !
وطبيعى أن يفشل مثل هذا القس فى رسالته ، ويشير فى نفوس الصغيرات
كراهية له واشمئزازاً من ربه البشع الرهيب .

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل تعداه إلى نواح أخرى ، فماريا —
حبيبة أخوتها ومعبودتهم جميعاً — فتاة ذكية راجحة العقل ، تسمو
بتفكيرها عن مستوى زميلاتها فى الدراسة ، ولكنها مهملة بطبعها فى بعض
الأمر . وأثار إهمالها كراهية مدرسة قاسية لا تعرف الرحمة ، فأنزلت بها
من أنواع الاضطهاد ما تنكره الإنسانية . وعلى الرغم من أن داء السل كان
يفتك بها وباليزابث ، وضاعف فتكه العذاب والجوع ، فقد احتملت السعير
الذى تعيش فيه بصبر وطول أناة . ويقال إن ماريا أصيبت بقرحة كبيرة فى
جانها ، واشتدت بها الآلام ذات صباح ، فلم تقو على النهوض من فراشها
وجاءت المدرسة القاسية ، ورأتها مريضة متألماً ، ومع ذلك أمرتها بالنهوض
حالاً من الفراش ، فلبت الأمر متخاذلة مرتجفة لفرط الحمى ؛ ولأنها تباطأت
بعض الشيء فى ارتداء ملابسها ، هجمت عليها المدرسة ، وأمسكتها من مكان
القرحة ، وألقت بها على الأرض ، ثم انصرفت غاضبة . وصرخت
التلميذات جميعاً رعباً وفزعاً ، فأسكتتهن ماريا بألفاظها الرقيقة ، وأتمت
ارتداء ملابسها ، وهبطت إلى قاعة الدرس ، ولأنها تأخرت بضع دقائق
عن الابتداء نالت عقاباً جديداً على تأخرها .

وحدث بعد ذلك أن انتشر فى المدرسة وباء التيفوس الخبيث ، فراح
ضحيته الكثيرات ، وأصيبت ماريا واليزابث ، فكان القضاء المبرم على

ما تبقى من جسديهما النحيلين . وعند ما زال عنهما خطر التيفوس ، كان الموت يقترب في خطى حثيثه ؛ واستدعى الوالد على عجل ، فحمل بقاته الأربع من المدرسة الرهيبة ، وعاد بهن إلى الأبراشية ؛ وماتت ماريا بعد أيام قليلة ، وبموتها حرم أولاد برونتي العطف الوحيد الذى تذوقوه خلال حياتهم المظلمة ؛ ولحقت بها اليزابث بعد أسابيع !

وعلى الرغم من أن تشارلوت لم تقاس شيئاً من المذلة لذكائها واجتهادها ، وعلى الرغم من أن إميلي جذبت قلوب أهل (كوان بريدج) بجمالها وورقتها ، إلا أن الفظائع التى مرت بأختيهما الراحلتين ظلت ماثلة فى ذهنيهما مدى الحياة . وعند ما كبرت تشارلوت ، وألفت (جين أير) كرست جزءاً كبيراً من الكتاب لهذه المدرسة ، ووصفت الآلام والأحزان فيه بتطويل وانتقمت من المدرسة انتقاماً يلائم وحشتها وقسوتها .

ونحن نعرف أن أخطر الذكريات ما ينطبع فى الذهن خلال الطفولة ، ويبقى حبيساً لا يجد مجالاً للظهور ؛ وهو فى هذه الحال يتضخم ويزيد ويتجسم ، وذلك ما حدث فعلاً مع تشارلوت ؛ فقد ظلت طيلة طفولتها وشبابها تطوى ذكرياتها بين جنبتيها ، حتى أتها الفرصة ، فأخرجتها فى (جين أير) ، ورسمت بدقة (كوان بريدج) باسم (ملجأ لود) ، وصورت أختها المحبوبة ماريا فى صورة هيلين بيرنز ، وجعلت المدرسة القاسية المتوحشة مس سكاتشارد . وكانت دقيقة فى تمسكها بأهداب الحقيقة ، حتى مكنت جماهير القراء من معرفة الأماكن والشخصيات التى وضعت تحت أسماء مستعارة .

ساد الأبراشية — بعد وفاة ماريا وأليزابث — جو من الهدوء والوجوم وخلت الحياة فيها من دواعى السرور والسعادة للأطفال ، فالأخت الكبرى التى قامت أبداً مقام الأم العطوف الحنون قد ذهبت ، والحوادث المحزنة الأخيرة قد خلفت أثراً أعمق من أن يمحوه الزمن ، وتضائل عددهم إلى أربعة بعد ستة ، وهى نسبة ملحوظة أحس الكل بوطأتها فى بادئ الأمر .

واقضت الأيام على وتيرة واحدة لا تغيير فيها ولا تبديل : فى الصباح يستيقظن مبكرات ، ويقمن بنصيبهن من العمل المنزلى ، ثم يخرجن مع أخيهن الوحيد برانويل للسير طويلاً فى البرارى الواسعة الممتدة . وبعد الغداء ينصرف الصبى إلى درسه اليومى مع والده ، وتجلس الفتيات الثلاث حول الخالة يقرأن أو يتعلمن فن الحياة والتطريز . وفى المساء تدب الحياة فى هؤلاء الصغار ، فيجتمع الأربعة حول نيران الموقد يقرأون الجرائد ، ويتناقشون فى السياسة وأخبار اليوم ، ويؤلفون قصصاً بارعة عن أبطال المجتمع البارزين ، ويحاول كل منهم أن يخرج بطله منتصراً .

وكانت تشارلوت — أكبر الأربعة — فى التاسعة من عمرها إذ ذاك

وإن ارتفعت بحكمتها وذكائها عن مستوى سننها بكثير ، غير أن الطبيعة
حرمها نعمة الحسن ، وهى أعظم نعمة تتوق إليها المرأة فى الحياة : فحسبها
نحيل الى درجة الهزال ، وقامتها قصيرة كقرمز صغير ، وأنفها كبير بارز ،
وفمها متسع ، وشفاتها الدقيقتان تنفرجان عن أسنان معوجة مشوهة ،
وعيناها عميقتان واسعتان ، ومع ذلك فنظرها قصير ضعيف يدفعها إلى دفن
وجهها فى الأوراق عند الكتابة أو القراءة .

وأحست تشارلوت بهذا القبح ، وأسمعها الناس رأيهم فيه منذ الصغر ،
فتملكها شعور بالنقص ، وأصابها عقدة نفسية ظلت طوال حياتها محور
شدوذها وخشونتها ، فابتعدت عن الناس ، وكرهت الغرباء ، وبدأتهم
بالعداء ، اعتقاداً منها أنهم ينفرون من النظر إليها ، ويشتمون من قبحها .
وطبيعى أن تتوق إلى السمو فى ناحية ، لتعوض نقصها فى الناحية الأخرى
ولكن حياتها الضيقة ، ومحيطها المحدود لم يفسحها مجالاً واسعاً ، فقنعت
بالسيطرة على أخوتها ، وبسطة سلطانها على ثلاثتهم ، وظلت مدى
حياتها تتحكم فيهم ، وتوجههم وفق آرائها وهواها ، دون تقدير لرغباتهم
الخاصة وميولهم الطبيعية .

وتبينت على مر الأيام أن النبوغ والشهرة هما سبيلها الوحيد للانتصار
على القبح ، فعبدت هذه الشهرة وذلك النبوغ فى غيرها من الناس ،
وقدمت آيات الولاء والخضوع لعظماء المجتمع ، واختارت من بينهم دوق
ولنجتون - رجل البلاد الأول إذ ذاك - ليكون بطلها ومعبودها ، وألفت
عنه قصصاً كثيرة ، وروايات تمثيلية عدة .

وتلفتت تشارلوت حولها ، وتفحصت أخوتها جميعاً ، فما وجدت من يستحق التقدير غير برانويل . وكان الصبي يصغرها بعام واحد ، ولكنه يفوقها في كل شيء : فحسنة الفريد يلفت الأنظار ، وبنيناه القوى يبشر بصحة طيبة ، ولسانه السلس وحديثه الممتع وذكاؤه المفرط تسحر قلوب أصدقاء الوافه ، والمترددين على دار الأبراشية . وأسلوبه الرائع في الكتابة ، وميله إلى الأدب والشعر ، وموهبته النادرة في الرسم كل أولئك يدل على عظم نموغه ، واقتربه من الشهرة في خطى حثيثة . وعند ما تبينت تشارلوت هذه الأمور ضمت برانويل إلى صدرها ، وأحاطته بحنوها وغمرته برعايتها وحبها ، واصطفته صديقاً حميماً من بين الآخرين . وبادلها الحب والعطف ورحب بصداقتها ، لأن الصبية في هذه السن يميلون إلى مصاحبة من يكبرهم عمراً .

وكانت إميلي - وهي ثالثة الأربعة - على عكس تشارلوت : شعرها كستنائى غزير يتهدل في خصلات متموجة فوق كتفها ، وقامتها طويلة فارعة ، وتقاطيعها حسنة متناسقة ، وعيناها النجلوان تشعان سحراً وغموضاً عجيباً لا يتناسب مع فتاة ما زالت في السادسة من عمرها ؛ ولكنها هادئة صامته خجول ، وإن كانت هذه الصفات قشرة ظاهرية فقط ، تخفى تحتها قلباً جباراً ، وروحاً مرهفة شديدة الحساسية ، وإرادة من حديد .

ووقفت إميلي ترقب التطورات الجديدة بين تشارلوت وبرانويل في دهشة ووجوم ، فهي أيضاً تحب أخاها كثيراً ، وتتمنى قربه ومصاحبته ..

تجبه لشخصه فقط ، لا لأنه سيكون عظيماً في يوم من الأيام ، ومع ذلك
فقد استأثرت تشارلوت به ، واستحوذت على ثقته وصداقته ، فشغل بهذه
الثقة والصدقة عن أختها الأخرى المحبة . وأحست إميلي بفراغ شديد في
حياتها ، وثار قلبها الجبار رغبة في الحب ، وتألّت نفسها المرهفة الحساسة
لحرمانها من العاطفة التي تنير حياة كل طفل صغير ، فتذرعت بإرادتها
الحديدية ، ووقفت ترقب مجرى الأمور صامتة جامدة ، وعندما وثقت من
الفشل قنعت بصداقة أختها الصغيرة آن ، وظلت الأثنتان جنباً إلى جنب
حتى فرقت بينهما الحوادث الرهيبة التي نزلت ببرانويل التعس .

وانقضت الأيام ، وتلتها الشهور فالأعوام ، والأخوة الأربعة يلازمون
دار الأبراشية ، ويعيشون في وحدة وعزلة لا يفتحونها غرباء ، ولا تبددها
صداقة أحد . وظل الوالد معتكفاً بين مكتبه وكنيسته ، وبقيت الخالة
حبيسة حجرتها تلتمس الدفء والانتعاش في أشعة الشمس إن دخلت ؛
وتزايد نصيب الفتيات في العمل المنزلي ، فقمن بالكنس والغسل والكي
وحياكة ملابس الجميع . وأرهقن العمل ، وحرمن زهرة السير في البراري
الواسعة المحبوبة ، فاشغقت الخالة عليهن ، وجلبت إلى البيت خادمة جديدة
هي تآبي العجوز .

وجاءت تآبي إلى الأبراشية وقد جاوزت الستين ، فاستطاعت بعد أيام
قليلة أن تملك ناصية الأطفال ، وتستحوذ على محبتهم وثقتهم ، فقد كانت
المثل الأعلى للمرأة اليوركشيرية الطيبة : خشنة اللفظ لا تميل إلى ملق أو

مجاملة ، ولكنها طيبة القلب ، وفيه لمن تحذمه ، فأخلصت الحب للفتيات ، وتفانت في توفير أسباب الراحة والسعادة لمن في حدود موارد الأسرة وطاقتها المالية ، ولم تتطلب شيئاً مقابل هذا غير صداقتهن . وبادلنها الحب والأخلاص ، وأصبحت حجرة مكنهن المفضل يجلسن فيها ساعات طويلاً يصغين إلى أغانيها الريفية الساذجة ، أو يسمعن منها قصصاً خرافية عن الجن .

والحياة الريفية البعيدة عن المجتمع إذا خلت من الحوادث المثيرة تدفع صاحبها إلى التأمل والتفكير ، وأبسط الأمور فيها يرسم في الذهن ، ويترك خلفه ذكريات دائمة تزيد تجسماً وعمقاً على مر الأيام . والذين يعيشون في وحدة دائمة لا يجدون عادة ما يسليهم ، فيبحثون في أدمغتهم عن وسائل التسلية ، ويرسمون لأنفسهم صوراً وحوادث تخلق فيهم ملكة الخيال الواسع الخصب . وهكذا كان الحال مع أولاد برونتي الأربعة ، وفي كل مساء يجتمع شملهم حول الموقد يتحدثون في مختلف الأمور التي قرؤوها في الصحف ، أو سمعوها من تآلي العجوز عن إضراب عمال الطواحين الهوائية ، وما يسببه من جوع وبؤس . ويقتلون هذه الموضوعات بحثاً ونقاشاً حتى تنطبع في أذهانهم ، وتوحى إليهم بقصص صغيرة مسلية ، فينكب كل على ورقة يسجل أفكاره وخيالاته وآراءه ، ويصوغها في شكل رواية تصلح للتمثيل .

وبدأت أعمالهم الأدبية بهذه الصورة ، ثم أخذت شكلاً جدياً آخر : ففي ذات مساء اجتمع الأربعة حول نيران الموقد كالعادة ، بعد أن انصرف

الوالد إلى مكتبه ، واعتكفت الخالة ، وأوت تابی إلى فراشها . وكان الليل لم يطبق بعد ، والأطفال لا يرغبون في النوم ، وساد الصمت بينهم ، فتشاء برانويل ، واقترح على أخواته لعبة تبعد الملل والسأم ، فإذا يلعبون ؟ جعلوا يفكرون بحماس ، ويستعرضون الألعاب التي يعرفونها ، ثم اتفق رأيهم جميعاً على شيء جديد ، وهو أن يختار كل منهم جزيرة لنفسه ، وينصب عليها حكاماً ثلاثة يديرون فيها شؤون السياسة والمجتمع . وانقسم الأربعة فريقين : أحدهما تشارلوت وبرانويل ، والآخر إيميلي وآن ، واختار الفريق الأول جزيرة خيالية اسمها أنجريا ، تقع غرب أفريقيا بالقرب من دلتا نهر النيجر ، ويسكنها شعب الأنجريين ، ويحكمها ملك اسمه (زامورنا) . أما الفريق الآخر فقد اختار جزيرة (أنجورا) بالمناطق المتجمدة المليئة بالجلال والتلال ، ويعيش فيها (الجوندال) تحت حكم ملك اسمه (جوليوس) .

وخرجت اللعبة بعد قليل من حيز الكلام إلى التأليف ، وسجل الفريقان الحوادث والأخبار شعراً ونثراً ، وفي كل يوم يجد من الحوادث السياسية ما يغير مجرى الأمور ، فتتعدد الأحوال ، ثم يخرج الملوك والحكام فائزين منتصرين . وظلت لعبة (الجزائريين) موضوعهم الحبيب ، وثابر عليها برانويل مع تشارلوت إلى سن العشرين ، ثم انصرفا عنها إلى الأبد ؛ ولكن إيميلي وآن تمسكتا بهذه اللعبة إلى آخر حياتهما ، وعندما كانت إيميلي بعد ذلك تؤلّف (مرتفعات وذرنج) كانت في الوقت نفسه تنظم سرّاً قصائدها الجوندالية المشهورة .

لم يكن في كتابة تشارلوت في ذلك العهد روعة تلفت النظر ، وإن حوت دقة في التعبير ، ورصانة في الكلمات ، واقتصاداً في استعمالها ، وقدرة على التصوير ، وهي صفات تدل على أن صاحبها تملك ناصية الأسلوب في شكل يساعدها بسهولة على التعبير الواضح عما يجول في خاطرها : كتبت وهي في الثالثة عشرة من عمرها تقول :

« في مساء يوم من أيام شهر نوفمبر كانت الرياح تموج مختلطة بالأمطار ، وخيم الضباب الذي يسبق العواصف الثلجية ، وهب هواء الشتاء يلفح الوجوه ببرودته ، فجلسنا جميعاً نتأمل لهيب النيران اللامع بعد أن انتهينا من مشاجرة تآبى على شمعة نوقدها ، وخرجت تآبى من المعركة منتصرة كالعادة ، ولم نحصل على الشمعة ! »

وكتبت بعد ذلك بعام تقول :

« وقع حادث عجيب في اليوم الثاني والعشرين من شهر يونيو عام ١٨٣٠ ، وكان والدى إذ ذاك مريضاً يلزم الفراش ، وبلغ به الضعف مبلغاً شديداً أعجزه عن التحرك دون مساعدة . وجلست أنا وتآبى وحدنا في المطبخ ، وفي منتصف الساعة السابعة سمعنا الباب يقرع فجأة ، فقامت تآبى وفتحته ، فقال لها رجل عجوز يقف في الخارج :

الرجل العجوز : أيسكن القس هنا ؟

تآبى : نعم .

الرجل العجوز : أريد أن أراه .

تأبى إنه فى شدة المرض ويلازم فراشه .

الرجل العجوز ولكنى أحمل رسالة اليه .

تأبى ممن ؟

الرجل العجوز من الرب .

تأبى من ؟ !

الرجل العجوز الرب . وقد طلب منى أن أقول له : إن المسيح

قادم ، وعلينا أن نستعد لاستقباله ، فالحيال على

وشك الأرتقاء ، والصحن الذهبى قد انكسر ،

وتحطم الإبريق عند النافورة .

وهنا اختتم حديثه العجيب ، وذهب فجأة كما حضر ، وبينما تأبى تغلق

الباب سألتها : أو تعرفين الرجل ؟ فأجابت أنها لم تروجه أبداً ، ولم تقابل

فى حياتها من يشبهه . وعلى الرغم من أننى واثقة أنه رجل طيب المقصد

وإن كان متعصباً لا يعرف التقوى على حقيقتها ، فإنى لم أقو على كبت

دموعى من أجل كلماته التى نطق بها فجأة فى مثل هذا الوقت العصيب . »

وهذه النبذ المنقولة من أوراقها فى سن الطفولة لا تكشف عن أسلوب

فريد ، ولكنها تفصح عن قدرة تامة على تسجيل ما يجول بذهنها بجمل

مختصرة متزنة واضحة . أما كتابة إمبلى فى ذلك العهد فلا تعرف شيئاً

عنها ، لأنها أخفت أوراقها عن إخوتها ، وعندما ماتت فى سن الشباب

تصفحت تشارلوت هذه الأوراق ، وأحرقت الكثير منها ، ولم تبق إلا

على بضع قصائد فقط ، فخرمت المؤرخين المرجع الأعظم لتعرف أخلاقها وعقليتها وأفكارها في ذلك العهد .

هكذا مضت السنوات الخمس التي أعقبت وفاة ماري و إليزابث بعد العودة من « كوان بريدج » ، وهي فترة طويلة خالية من الصحبة أو الرعاية الحقة : فالوالد بين كتبه وكنيسته لا يرى بناته كل يوم إلا بضع دقائق فقط لا تكفي لتوجيههن ، أو التغلغل في حياتهن ؛ والحالة قابعة في حجرتها خشية البرد ، وتابى كدأبها تؤنهن ، أو تسرد عليهن قصص الجن والسحر . وأبقت العزلة الطويلة أثرها على الفتيات طول العمر ، وخلفت لهن خجلا شديداً شاذاً أبعدهن دائماً عن الناس .

ولكن تشارلوت الطموح لم ترض بهذا الحال ، فالبقاء بين جدران الأبراشية معناه الجهل وخمول الذكر ، وذلك ينافي آمالها الكبيرة ، والعلم القليل الذي تلقنه لها الخالة لا يشبع ما في نفسها من تعطش إلى الثقافة والمعرفة ، فقررت أن ترفع من شأنها العلمي ، والحت على والدها ليعت بها الى المدرسة ، واقتنع الوافه برأيها ، فسافرت في يناير عام ١٨٣١ لتلتحق بمعهد مس وولر للبنات .

تقوم مدرسة مس وولر في منطقة « روهيد » على بعد عشرين ميلا من هاوارث ، ومع قصر المسافة بين البلدين اختلفت المناظر والأحوال الجوية كل الاختلاف . فالشمس ساطعة في روهيد ، والأمطار قليلة ، والشتاء خفيف الوطأة ، والحقول والحدائق ناضرة الخضرة مليئة بالزروع والزهور . والمدرسة بناء جميل يقوم في ركن حقل واسع كبير ، والحجرات صحية ، والنوافذ الكثيرة تطل على مناظر طبيعية تحلب الأبواب واشتهرت مس وولر بين الجيرة بدمثة الخلق ، والأدب الجم ، وكرم الأصل ، فأقبل الناس على مدرستها ، وأحبوها واحترموها ؛ وأحست التلميذات بالراحة والسعادة في صحبتها ، وشعرن كأنهن يعشن في بيوتهن تماما .

وفي اليوم التاسع عشر من شهر يناير عام ١٨٣١ وقفت عربة صغيرة أمام المدرسة تقل تشارلوت برونتي ، فتجمع البنات ليرين الطالبة الجديدة ؛ ونزلت من العربة فتاة ضئيلة الجسم كأنها عجوز درديس ، ترتدى ثوبا قبيحا عتيق الطراز ، وكان جسدها يرتجف بردا ، ووجهها ينطق بالتعس والشقاء . ولم تحدث تشارلوت في بادئ الأمر أثرا طيبا في نفوس زميلاتهن : فهي

تحدث بلهجة أرلندية قوية تختلف كل الاختلاف عن لهجة أهل يوركشير،
وهي خجول حية تنفر من الاختلاط، ونظرها الضعيف يمنعها من مشاركة
الزميلات في اللعب والمرح. وفي حجرة الدراسة تجلس وقد دفنت وجهها في
الكتاب، فإذا طُلب منها أن ترفع رأسها ارتفع الكتاب أيضاً كأنه
يلتصق بأنفها!

وأحست تشارلوت بالوحدة الشديدة في حياتها الجديدة، فابتعدت في
اليوم الثاني عن الفتيات الضاحكات، ووقفت جوار النافذة تتأمل الثلوج
المتساقطة، وتبكي في حرارة وحزن. وتأثرت إحدى الفتيات واسمها إلين
ناسي، فاقتربت منها، وتحدثت إليها في عطف، وكان ذلك بدء صداقة
حارة بين الاثنين ظلت قوية ثابتة على مر الأعوام.

وكانت تشارلوت — بطبيعة الطريقة التي عاشت عليها وتعلمت بها في
هاوارث — أجهل من زميلاتها في بعض العلوم، وأنبغ منهن في علوم أخرى:
فعلى الرغم من مؤلفاتها الكثيرة عن الانجريين، والمناطق الاستوائية كانت
لا تعرف شيئاً عن الجغرافية وقواعد اللغة، ولذلك نقلتها الناظرة إلى السنة
الثانية مع فتيات يصغرنها سنّاً بكثير. وتألّت الفتاة الطموح، وجرحت
كبريائوها، وبكت بكاءً مرّاً أثار عطف مس وولر، فأعادتها إلى فصلها
الأول بعد أن وعدت بمضاعفة العمل للوصول إلى المستوى المطلوب. ووفت
بوعدها فعلاً، واشتغلت ليلاً ونهاراً، فتفوقت على الجميع بعد شهر معدودات!
ولكن الفتاة الجاهلة أدهشت الجميع بسعة معلوماتها العامة، فهي تحفظ

قصائد أعظم الشعراء عن ظهر قلب ، وتعرف في السياسة وشئون البرلمان
مالا يعرفه الرجال ؛ ويتناول حديثها السياسى عادة دوق ولنجتون ، فتسرد
على زميلاتها تفاصيل مجهوداته وانتصاراته بدقة عجيبة . فضلا عن أنها
قصصية من الدرجة الأولى ، وفي كل ليلة تتوسط الفتيات ، وتقص عليهن
في مهارة تصويرية محببة قصة خفيفة من تأليفها تبث الرعب في أوصالهن ،
حتى أن إحدى البنات أصيبت ذات مرة بنوبة عصبية حادة .

وأحدثت الثقافة المنتظمة ، والحياة الدراسية الجديدة أثراً ملحوظاً في
تشارلوت ، فنضجت أفكارها ، وراجعت نفسها في أحلامها القديمة ،
ووجدت أن هذه الأحلام غير معقولة أو عملية . فجال الشجرة والعظمة ضيق
أمام فتاة قضت حياتها في الريف ، ولم تتلق من العلم ما يمكنها من الوصول
إلى ما تنبغيه ؛ ثم أن والدها فقير لا يملك ثروة ما ، فمن واجبها إذاً أن تعد
نفسها من اليوم لاكتساب رزقها بعرق جبينها . وأمام الحقيقة المرة تنازلت
عن أحلامها القديمة ، وقنعت بأمل صغير ، وهو أن تتمكن الظروف من
الحصول على وظيفة مربية في أسرة ، أو مدرسة في معهد صغير .

ولكن الثقافة المنتظمة ، والحياة الدراسية لم تغير شيئاً من جبروتها القديم
وحبها للسيطرة على أختها ، ورغبتها في توجيهها وفق رأيها وهواها دون
تقدير لرغباتها الشخصية ، أو استعدادها الطبيعي . وعندما قررت احتراف
التدريس ، قررت أيضاً أن تحترفه إملى وأن ، وأعدت العدة لذلك في
بطء وحزم وسكون ، وأرسلت إلى الأبراشية أخبار قرارها الجديد ، وأمرت

الفتاتين بالدرس والتحصيل استعداداً للمهنة المنتظرة . وبعد سنة ونصف تخرجت تشارلوت من مدرسة مس وولر ، وعادت إلى الأبراشية عام ١٨٣٢ وقد بلغت السادسة عشرة من عمرها .

كانت الفترة الدراسية في روهيد ذات أثر حيوى عميق في حياة تشارلوت ، فقد عقدت خلالها صداقة مع ماري تايلور وإلين ناسى ، وهو حدث جديد في تاريخ الأبراشية التى يعيش أهلها بعيداً عن الناس وعن الصداقات . وعلى الرغم من تعلقها بمارى أخذ شعورها نحو إلين شكلاً عاطفياً حاراً ، وأقبلت صلتها بها إلى صداقة حارة من النوع الذى يحدث عادة في سن المراهقة ، ثم لا يترك بعد ذلك خلفه أثراً ما . ولكن علاقة الفتاتين انتصرت على القاعدة العامة ، وظلت قوية ثابتة حتى النهاية ، وبفضل خطاباتها استطاع المؤرخون أن يصلوا إلى كثير من أسرار حياتها الأدبية الكبيرة ؛ كتبت تشارلوت وهى فى السادسة عشرة إلى إلين ناسى تقول :
« لقد قدر على صداقتنا أن تستثنى من القاعدة العامة

للصداقات المدرسية »

وكانت تشارلوت فى بادئ الأمر هى الحاكمة المسيطرة على إلين ، فهى التى تشجعها وتحمسها وتعلمها ، وتناقشها فى الشؤون العامة ، وتخلق فيها الثقة بالنفس ، تقول فى خطاب إليها :

« إن مواهبك الطبيعية فائقة ، وتحت قيادة صديقة وفيه يمكنك

أن تكتسب ذوقاً سليماً في الأدب الرقيق والشعر الجميل »

ومرست إلين واشتد بها الحال ، وخشى الطبيب أن يكون صدرها قد أصيب ، فقلقت تشارلوت من أجلها ، وكتبت إليها تقول :

« إن طبيبك الناصح مخطيء في اعتقاده أنك معرضة لداء صدرى . . عزيزتى إلين لو حدث هذا لكان مصاباً فادحاً ، فاحذرى الأثر الحزين الذى يولده عادة مثل هذا الاعتقاد »

وعلى مر الأيام زادت حرارة الصداقة ، فأصبحت الناصحة المسيطرة تخشى أن تفقد صديقتها المحبة ، وعندما علمت بسفرها إلى لندن خافت أن تشغل بابليون الحديثة ، إلين عنها ، ولكن مخاوفها لم تتحقق ، فهدأت نفسها ، وزال قلقها ، وبدأت صداقتها تأخذ شكلاً حكيماً رصيناً .



عندما عادت تشارلوت من مدرسة مس وولر بسطت سلطانها على أختها ، وأخذت على عاتقها أن تعدها للمهنة التى قررت أن يحترفها ثلاثتهن فى الحياة ، وقامت بتعليمهما وتنقيفهما ، ونسيت أن تستطلع رأيهما فى المهنة الجديدة . وتقبلت آن الأمر فى هدوء ورقة كهاتما ، ولكن إميلي نارت فى صمت على التدخل فى شئونها وحياتها ، فهى تحب البرارى الواسعة ولا ترغب فى ثقافة أو تدريس ، وتريد أن تترك حرة طليقة ، لتعيش وتموت بين أحضان أمها الطبيعة . وأقبلت على الدرس دون اعتراض ، وقد

بدأت بذور النور تنمو في قلبها نحو أختها التي حرمتها أولاً صداقة برانويل ، وتريد الآن أن تحرمها الطبيعة التي أحببتها .

ولم يكن لشارلوت ميل الى الأعمال المنزلية ، فابتعدت عنها ، وفضلت أن تقضى وقتها في التدريس لاختيها ، أوفى التأليف وقرض الشعر مع برانويل ؛ وطبيعي أن تعجز تآبي العجز عن تأدية مطالب البيت ، فسقط الحمل على كتفي إميلي ، فقامت بكنس الحجرات ، وغسل الثياب ، وعجن الخبز ، وتلبية حاجيات مختلف أفراد الأسرة . ومثل هذه الحياة قاتلة — ولا شك — لفتاة موهوبة حساسة يتعطش قلبها الجبار إلى العطف والحب ، وتلفتت حولها بحثاً عن هذا الحب فلم تجده ، فالخالة قد وقفت قلبها على الصبي دون البنات ، والوالد معتكف في حجراته لا يهتم من الحياة شيئاً غير كتبه وكنيسه ، وشارلوت تستحوذ على برانويل العزيز ، أما أن فهي فارغة ومميزاتها الوحيدده طبيعتها وتقواها ، وهي صفات محبة ، ولكنها لا تملأ فراغ روح إميلي أو تشبع مطالب قلبها العظيم .

وكانت إميلي في طفولتها تحس بفراغ نفسى ازداد على مر الزمن ، فأصبح اليوم وحشة خطيرة تهدد آراءها ومعتقداتها وإيمانها ، ولو أنها كانت بطبعها تميل الى الحديث ، لأفرغت بعض ما يطويه قلبها ، فتخف حدة آلامها كثيراً ؛ ولكنها كانت ضموتاً تعيش في تحفظ دائم يحيطها بدرع قوى من العزلة ، ولم يستطع أحد أن يحطم هذا الدرع ، ليصل إلى قرارة نفسها . واستعاضت عن الحب البشرى بحب الطبيعة ، وأغرمت

بالبرارى التى تشبهها فى الوحدة والغموض ، وبين أحضان هذه البرارى
يزايلها جمودها ، فتبسّم وتترح كطفل غرير ؛ أو تجلس على صخرة ،
وتستسلم لتأمل طويل لذيد .

وقد يتبادر إلى الذهن أن إميلي بهدوءها وصمتها كانت تعيش بين
جدران الإبراشية دون تقدير أو اعتبار كلا بل على العكس من
ذلك كان الكل يرهبها ، ويخشى جانبها ، فجمودها كان سر قوتها ،
وغوضها مبعث الرهبة فى قلوب الآخرين ؛ ولما كانت تغضب ، وإذا
غضبت ابيض وجهها ، وتقلص فمها ، وتطير الشرر من عينيها ، فلا يجرو
أحد على التدخل أو النطق .

وكما يحدث عادة لمن يعيشون فى وحدة أحبت إميلي الحيوانات ،
وبالغت فى حنوها وعطفها عليها ، واحتفظت فى حجرتها بنسر وضعته فى
قفص ، وجلبت كلباً كبيراً متوحشاً لم يستطع أحد غيرها أن يروضه أو
يقرب منه ، وأخلصت فى وفائها للنسر والكلب ، وأشركتهما فى طعامها
دائماً ، ولم تأو يوماً إلى فراشها قبل أن توفر لهما أسباب الراحة والدفء .
وأظهر برانويل فى ذلك العهد ميلاً إلى الرسم ، واستعداداً عظيماً له ،
فتقرر أن يدرس هذا الفن فى الأكاديمية الملكية بلندن ، وتمهيداً لذلك
خصصت له حجرة فى الإبراشية يرسم فيها صورته ولوحاته . ولم ينسه الفن
حبه للادب ، فتأبر عليه فى نشاط ، وفى كل مساء يجلس مع تشارلوت
ينظم قصائد جميلة ، ويؤلف قصصاً رائعة ، مما يبشر بمكانة رفيعة فى

التأليف أيضاً، ونضج أسلوبه وارتقى ، وأحس هو بذلك فداخله الغرور ،
وعندما سمع أن المحرر الأول في جريدة (بلا كودز) قد ترك العمل ،
أرسل إلى صاحب الجريدة يعرض عليه خدماته ، ويقول :
« لقد حرمت كاتباً قديراً هو جيمس هوج ، ولكن ها هو ذا الله
يمنحك آخر في شخص برانويل برونقى . . . »

وأتقن أيضاً فن الحديث ، وبرع فيه ، حتى اشتهر أمره في الجيرة ،
وأقبل الناس من مختلف البلاد القريبة على حانة الثور الأسود ، ليستمتعوا
بحديثه الشهى ؛ وكما وصل نزيل جديد أرسل صاحب الحانة يستدعى
برانويل ؛ فيسمح له والده بالذهاب فخوراً مزهواً ، وقد نسى أنه بذلك
يدفع ابنه الوحيد إلى الهاوية !



انقضت سنوات ثلاث وأولاد برونقى الأربعة بين جدران الأبراشية ،
وتقرر أن يذهب برانويل إلى لندن ، ليلتحق بالا كادومى الملكية ، فأثار
هذا القرار تفكير تشارلوت : كانت تعرف أن إيراد والدها لا يزيد على
مائتى جنيه فى العام ، وهو مبلغ صغير لا يتسع للانفاق على برانويل
والإنفاق عليهن ، ولذلك حزمت رأيها على العمل ، لتخفف العبء عن
والدها ، وجعلت تبحث عن وظيفة ، وجاءها عرضان لتكون مربية فى
أسرة ، ولكنها رفضت العرضين بطبيعة الحال ، وفضلت أن تعود إلى
روهيده مدرسة بعد أن كانت طالبة ، وأرسلت إلى إلين نامى تقول :

« ستذهب إميلي الى المدرسة ، وسيسافر برانويل إلى لندن ، أما أنا
فسأعمل مدرسة ، هذه هي قراراتي الأخيرة . . . »

وهكذا قررت لنفسها ، وبجبروتها المعهود قررت مصير إميلي أيضاً ،
دون أن تستطلع رأى صاحبة الشأن في هذا القرار ؛ وحزمت أمتعتها ،
وامتعة أختها ، وسافرت الاثنتان إلى مدرسة مس بُول في اليوم التاسع
والعشرين من شهر يوليو عام ١٨٣٥ .

طابت الحياة لتشارلوت برونتي مع مس وولر ، فحمدت الله أن « أوقع حظها بين أيد طيبة » كما تقول . وأقبلت على عملها الجديد بشغف واجتهاد مما أوثق عرى الصداقة بينها وبين ناظرتها القديمة . ولكن إميلي فشلت في احتمال الحياة الجديدة ، واشتد بها الحنين إلى حريتها السابقة ، وفي كل صباح يعاودها شبح البرارى التى تحبها ، والتى تجد فى سكونها وغموضها متعة لقلبها المحروم ، « فيظلم اليوم الذى ينتظرها ويبتئس » . وذبل وجهها على مر الأيام ، وفارقتها بسمتها النادرة ، وازداد جسدها نحولا ، وانحطت قواها الصحية إلى درجة مقلقة .

وحاولت تشارلوت أن تخفف عن أختها ، وتعيدها إلى حالتها النفسية السابقة ، فلم تفلح ، لأن الأختين اختلفتا تماماً فى العقلية والأخلاق بحيث استحال على « إحداهما أن ترى الحياة بعين الأخرى » . ولم تمض شهور ثلاثة حتى كانت إميلي طريحة الفراش ، تكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة ؛ وتبينت تشارلوت خطأها ، فأعادتها إلى البيت مرة أخرى ، وكتبت بعد ذلك تشرح الأسباب :

« شقيقتي إميلي تحب البرارى ، وفي أسوء أركانها تبدو لعينها زهور
أزهى وأروع من الورود ، وباستطاعة ذهنها أن يخلق جنة من أى حجر
حزين فى تل أجذب لا لون له . وفى هدوء البرارى تجد متعة عدة أهمها
الحرية ، فالحرية هى النسيم الذى تستنشقه إميلي ، وبدونه تفتى وتذبل ؛
وكان انتقالها من البيت إلى المدرسة ، وتغيير نظامها من عزلة لا تصنع فيها
ولا قيد ، إلى حياة كلها نظم وقيود أكثر مما تحتمله وعندما تستيقظ
كل صباح يطبق عليها شبح البيت والبرارى ، فيظلم اليوم الذى ينتظرها
ويبتئس ؛ ولم يعرف أحدا ما تعانیه غيرى ، فقط كنت أفهم تماماً حقيقة ما
فى قلبها . وفى هذا الصراع تحطمت صحتها ، وذبل وجهها ، ونحل جسمها ،
وانحطت قواها ، مما يهدد بفناء سريع ؛ وأحسست أنها ستموت إن لم تعد
إلى البيت ، فأعدتها إليه . . . »

وعادت أميلي إلى الأبراشية والبرارى التى ترعرعت بين أحضانها ،
فاستعادت صحتها ، وعادوها إشرافها ونضارتها ، ولكن التجربة القاسية
قضت على البقية الباقية من هدوء النفس ، وخيل إليها أنها فتاة يتيمة
طريدة ، لا تملك حق السيطرة على حياتها ، ولا تجد حولها من تحبه أو
يحبها . وتملكها هذا الشعور الجديد ولم يفارقها منذ ذلك الوقت ، وولد فى
خيلتها (هيشكيليف) بطل (مرتفعات وذرنيج) — . . . الصبى اليتيم
الطريد الذى لا تعرف له أسرة ولا وطن .

ولما فاضت بها الأحزان أمسكت القلم ، وقرضت الشعر سراً ، وأخفت

قصائدها في حذر ، لأن تلك القصائد كانت صورة نفسها الحقبة التي لا تريد أن يكشفها إنسان ، أو تقع عليها عين الآخرين .

ولم تكن الأشعار عمل إميلي الوحيد خلال هذه المدة ، فعند عودتها وجدت أن تآبي العجوز قد سقطت — وهي في طريقها إلى القرية — فكسرت قدمها ، فكلفت الشاعرة الصغيرة بجميع الأعمال المنزلية مرة أخرى ، فقامت بطهي طعام الأبراشية ، وكى ملابس جميع أفراد الأسرة ، وعجن الخبز ومختلف أنواع الكعك ، وكنس حجرات الدار ومسحها كل يوم . ورضيت بكل هذه الأعمال المرهقة ، وأتقنت أداءها كأى خادم محترفة ، فكان خبزها طيباً ، وطعامها شهيئاً ، وغسيلها لا عيب فيه . ولم يشغلها عملها عن الثقافة والاطلاع ، فكانت تضع دائماً كتاباً على مائدة المطبخ تسترق إليه النظر ، كلما خلت دقيقة من العمل .

وفي ذلك العهد تلقى برانويل أول صدمات حياته : فقد كان بلا ريب أنبغ أولاد برونتي جميعاً ، وأحس هو بنبوغه وعبقريته ، وأسمعه الناس آيات المديح والإطراء ، وطأطأ الوالد رأسه له احتراماً ، وأحرقت الأخوات الثلاث البخور عند قدميه ، فامتلاً قلبه بالثقة والغرور ، وخيل إليه أن أبواب العلم والاجتماع قد فتحت أمامه ، لتتلقفه بالترحيب ، وأن المجد هو المستقبل الوحيد الذي ينتظره ، ولم يدخل الفشل قط في تقديراته واعتبارات. وبهذه الثقة ، وتلك الروح سافر إلى لندن ، ليلتحق بالأكاديمية الملكية ، ولكن الأكاديمية لسبب ما رفضت قبوله ، فصدم بالرفض صدمة قوية غير

منتظرة، وتبين للمرة الأولى أن الحياة قد لا تسير وفق هوى الإنسان ورغباته، فعاد إلى الأبراشية مخذولا ، وقد بدأ يستيقظ من حلمه الماضى الجميل . وأثرت الصدمة على نفسيته ، فزايه الكثير من مرحة السابق ، وأقبل على حانة الثور الأسود ، ليفرغ فى كئوس الخمر متاعبه وأحزانه .

فى أواخر عام ١٨٣٦ عادت تشارلوت وأن من المدرسة ، لقضاء عطلة عيد الميلاد ، فاجتمع شمل الأسرة من جديد ، وبدأت ثانية معركة الأدب بينهم ، وهجرت تشارلوت كتابة النثر ، وكرست جهدها للشعر ، وهكذا فعل صديقها برانويل . وحركت الحياة الجديدة أطماع الفتى مرة أخرى ، فزايه الحزن والوجوم ؛ وعأوده أمل جديد ، وهو أن ينشد فى عالم الأدب اسما بعد أن فشل فى عالم الرسم . ولم تنطق إميلي بكلمة عن قصائدها العدة ، ولم يهتم أحد بمعرفة ما تفعله وحدها فى حجرتها المغلقة كل ليلة .

وفى شهر يناير عام ١٨٣٧ بدأت مطامع تشارلوت وبرانويل تأخذ شكلا جديا فى الشعر ، واقتنعا بأنه لا فائدة من الاستمرار فى النظم دون رأى راجح يرشدهما ، ويوجههما التوجيه الصحيح ، قاتفقا على استطلاع رأى بعض قادة الأدب ونقاده فى البلاد ، وكتب برانويل خطابا رقيقا إلى وردزورث العظيم ، يسأله الحكم على قصيدة من نظمه ويقول فيه :

سيدى ..

أقدم إليك راجيا ملحا فى أن تقرأ قصيدتى المرسلة ، وأن تصدر الحكم

عليها بما تراه ، فقد عشت منذ ولادتي إلى الآن — وقد بلغت الآن التاسعة عشرة من عمري — بين جبال منعزلة بعيدة ، ولذلك ليس في مقدوري أن أعرف من أنا ، أو ما يمكنني القيام به : فأنا أقرأ مثلاً ، لأن الطبيعة تدفعني إلى ذلك مثلاً تدفعني إلى الأكل والشرب ، وأكتب كما أتكلم تماماً بدافع ما يجول في ذهني ، وبوحى ما يحسه شعوري . أما عن الغرور فليس في حياتي مجال يغذيه ، ما دام العالم — حتى هذه الساعة — لا يجوى ستة أشخاص يعرفون أنني خططت سطرّاً واحداً .

ولكن الأمر يختلف الآن يا سيدي ، فلقد تقدم بي العمر ، وحق على أن أفعل شيئاً من أجل نفسي ، وأن أستغل مواهبى ، وأوجهها إلى نهاية واضحة مقررة ؛ وما دمت أجهل قدر هذه المواهب ، فمن واجبي إذاً أن أبدأ إلى غيرى ، ليخبرنى بقيمتها الحقيقية ، وما تساويه في الحياة ، حتى إذا كانت تلك المواهب تافهة ، فالوقت أثمن من أن أضيعه فيها . . »

وأرسلت تشارلوت في نفس الوقت خطاباً مماثلاً إلى روبرت سودى الشاعر الكبير ، والناقد المعروف ، وانتظر الاثنان الرد في قلق وتوجس ؛ ولكن الأيام مضت متشاقة ، ولم تصل الإجابات المنشودة ، وبعد مدة طويلة تلقت تشارلوت من روبرت سودى خطاباً رقيقاً حذراً ، وإن كان أبعد ما يمكن عن التشجيع ، وفيه نصحتها أن تتعد عن الأدب « لأنه طريق خطير في الحياة ، فما هو بصناعة المرأة ، ولا يجب أن يكون »

وكان الخطاب لطمة شديدة لتشارلوت ، ومعولاً قاسياً هدم آمالها البعيدة

وأحلام ماضيها ومستقبلها ، ولكنها خضعت لمشورته ، وعملت برأيه وهجرت
الشعر ، وكتبت إليه تقول :

« لن أطعم يوماً في رؤية اسمي مطبوعاً على ورق ، وإذا تحركت الرغبة
في نفسي مرة أخرى ، فسأنظر إلى خطاب سودى وأكتبها .. »

ولقد عاش سودى ليرى تشارلوت برونتي تتربع على عرش العظمة والمجد
وكتابتها «جين إير» تتلفه أيدي الجماهير في عاصفة حامية ؛ وتساءل الناس
في عجب : أحقية لجأت المؤلفة النابغة يوما إليه ، فنصحها بالابتعاد عن
الأدب ؟؟ ولكن إنصافاً للشاعر الكبير نقول : إنها أرسلت إليه قطعة
شعرية ، وأشعار تشارلوت برونتي تافهة لا جمال فيها ، فكان إذاً على حق
فيما كتبه إليها .

أما برانويل فلم يتلق إجابة ما من وردزورث على الرغم من أن الشاعر
العظيم تلقى خطاب الفتى واحتفظ به ، وقد يكون ذلك لأن أشعار برانويل
أيضاً كانت ضعيفة متصنعة ؛ ولكن العجيب في الأمر أن الكاتب الكبير
لم يتبين في خطابه المرفق مع القصيدة موهبته الفذة في النثر ؛ وعلى أى حال
فقد تلقى برانويل الصدمة الثانية في حياته ، وفشل في عالم الأدب كما فشل
في عالم الرسم ، وانتابه يأس شديد أظلم حياته ، فتضاعف تردده على حانة
الثور الأسود .

انتهت العطلة المدرسية ، فاتمت معها أحلام الماضي الجميل ، وطلقت

تشارلوت الأدب طلاقاً حازماً ، لا رجعة فيه ؛ وعادت إلى مدرسة مس وول
مع أختها آن ، ولكنها لم تنس - قبل الذهاب - أن تقتحم عزلة إيميلي
مرة ثانية ، وأن تسدد إلى قلبها سهماً جديداً . ولم يرضها أن تبقى أختها في
البيت كلاً على الأسرة ، مع أن إيميلي كانت تعمل في الأبراشية بما يزيد
على قيمة طعامها الضئيل ؛ واهتدت تشارلوت إلى معهد صغير بالقرب من
هاليفاكس ، تديره سيدة قاسية اسمها مسز باتشت ، فأرسلت أختها إليه
لتعمل مدرسة ، ونسيت أن تجربة روهيد منذ عام واحد كادت تقتل الفتاة
المرهفة الحساسة .

واستقرت إيميلي في حياتها الجديدة مرغمة لا راضية ؛ وما كادت تبتعد
عن الأبراشية ، وتحرم البراري الخلابة حتى ذبلت مرة أخرى ، واصفر وجهها
وغارت عيناها ، وزداد جسدها نحولا . وأنشبت مسز باتشت أظافرهما
فيها ، ففاست الفتاة الموهوبة ألوان النذل والاستعباد والمهانة ؛ وكانت تعمل
كل يوم من السادسة صباحاً إلى منتصف الليل دون توقف . وكتبت
تشارلوت إلى آن ناسي تقول :

« تسلمت منها خطاباً واحداً منذ الرحيل ، وقد ضمنته وصفاً فظيماً
لواجباتها هناك : عمل قاس من السادسة صباحاً إلى منتصف الليل ، لا تتخلله
راحة أكثر من نصف ساعة . هذا ما يسمونه المرتب ، وأخشى أنه لن
يمكنها الاحتمال . . »

ولم تشك إيميلي بعد ذلك أو تتكلم ، فأى فائدة من الشكوى والكلام ؟

إن تشارلوت تعرف ما تقاسيه ، ومع ذلك تصر على بقائها في العمل ؛ وتعلم أيضاً أن أختها لا تستطيع الحياة بعيداً عن براريها الجميلة ، وعلى الرغم من ذلك تدفعها مرة بعد أخرى بعيداً عن مورد الحياة ، ومنبع الحرية . وزادت صورة اليتيمة الطريفة في مخيلتها وضوحاً ، وتضاعف عدم إيمانها بالدنيا وبالدين ، ونما بين جنبتيها وترعرع بطلها الأسود « هيشكيلف » وعاش هو الآخر في أسرة كبيرة ، ولكن أحداً من أفرادها لم يحبيه أو يعطف عليه ؛ وقاسى على يدي من يعيشون حوله ألوان الذل والمهانة ، فلم يشك ولم يتكلم بل ظل صامتاً مثلها يطوى ألمه بين طيات قلبه ، فلما اشتد به الألم وفاض ، تحجر قلبه ووجد شعوره ، ووقف في الحياة ، لا كما يقف البشر ، بل كما تقف صخرة عظيمة شاهقة ، تتحطم فوقها الجماجم والقلوب ، فلا تخدشها هذه الأحداث ، أو تحركها من مكانها قيد أنملة . وخرجت إميلي من التجربة الجديدة أشد روحاً ، وأقوى عزماً وجبروتاً ؛ ولكن الصحة خانتها ، ولم تمض شهور حتى أشرفت على الفناء مرة أخرى ، فاستدعاها مستر برونقي إلى البيت على عجل .

أقبل عام ١٨٣٨ وتشارلوت مازالت تعمل مع مس وولر ، وتقضى أيامها وحيدة بين جدران حُجر عملها ونومها ، وقد تجاوزت صحة آن في أواخر العام المنصرم ، وأصابها ضعف وسعال شديد ذكر تشارلوت بأعراض السل الذي فتك بماريا وإليزابث . وتحت تأثير هذا الرعب اشتبكت مع ناظرتها القديمة في نقاش حاد ، واتهمتها بإهمال أختها ، وعدم العناية بها ، وانتهى الأمر بأن استدعى مستر بروتى ابنتيه إلى الأبراشية . وبعد عطلة عيد الميلاد بقيت آن في رفقة إميلي ، وعادت تشارلوت إلى عملها مرة أخرى بعد أن زال غضبها وانقضى .

وكانت حياتها في المدرسة ضيقة محدودة ، فهي تبالغ في القيام بواجبها ، ولا تمنح نفسها نزهة أو راحة . ومع أن مس وولر كانت تحبها ، وتبذل جهدها في توفير أسباب الراحة والسعادة لها أبت أن تستفيد من هذه الروح ، وأصرّت على دفن نفسها بين الكتب والورق ، ورفضت قبول دعوات صديقاتها لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في بيوتهن الأنيقة ، خشية أن تعوقها النزهة عن تأدية واجباتها المدرسية كاملة . وطبيعي أن يعجز جسدها النحيل

عن احتمال جهدها الكبير ، فضعفت صحتها وانحطت قواها سريعاً .
وأثر الضعف هذه المرة على روحها المعنوية ، فانتابها ثورة نفسية ،
وأصابها تشكك فظيع في دينها وعقيدتها ، وأرادت صديقاتها إعادة الإيمان
إليها بالمناقشة والبراهين ، فزادها الأمر تشككاً وبعداً عن الإيمان ؛ وكتبت
إلى إلين ناسى تقول :

« لم تتحسن حالى عما كانت ، ومازلت فى حالة تشكك محزن فظيع ، حتى
أننى فى هذه الدقيقة لأرضى عن طيبة خاطر أن أتخطى الشباب بما فيه من
متع ومسرات ، وأصبح عجوزاً شمطاء تقف على حافة القبر ، إذا كان ذلك
وسيلة مؤكدة للتوفيق بينى وبين الله . . . »

وانتهى الأمر بأن عجزت عن مواصلة التدريس ، فهجرت عملها ، وعادت
إلى الأبراشية مرة أخرى .

وفى أوائل صيف ذلك العام اجتمع شمل الأسرة من جديد ، وانتهت
آمال تشارلوت بلاشئ : فلقد أرادت أن تجعل من نفسها شاعرة ، ففشلت
فى رغبتها كل الفشل ، ثم قنعت بالعمل ، فشاء الله أن يقعدها عنه ، وحتى
عجزتنا إمبلى وأن عن سلوك الطريق الذى رسمته وأرادت أن تعدها له .
وكانت هذه أقسى فترات حياتها ، فقد تخلت عنها أحلامها وآملها ، ومنيت
بمختلف ألوان الإخفاق ، فقمعت بين جدران الأبراشية فى انتظار المزيد
من الصدمات والمضايقات .

كانت تشارلوت إذ ذاك قد تجاوزت الثانية والعشرين من عمرها ، وبرز

قبحها ، وتجلى عن ذى قبل ، فازداد شعورها بالنقص ، وتضاعفت عقدتها النفسية ، وأحست أن الطبيعة قد حرمتها مما يجذب الرجال ، فكرهت الرجال وحقدت عليهم ، وابتعدت عن صحبتهم ، وقنعت بأن تبحث دائماً عن عيوبهم ، بدل أن تعترف بميزاتهم الظاهرة ؛ ولكنها احتفظت بكبريائها العظيمة ، ولم تنهات على الفرص القليلة التى سنحت لها .

وفى شهر مارس أرسل إليها هنرى ناسى - شقيق إلين - يعرض عليها الزواج ، وكتب إليها خطاباً عملياً بمعنى الكلمة يخبرها فيه أنه ينوى قلب بيته إلى مدرسة ، ولذلك فهو فى حاجة إلى زوجة تعنى بالطلبة والطالبات . ولم تقبل تشارلوت العرض الموهين ، ورفضته فى حزم وقسوة شديدة ، ولم يتحطم قلبه لهذا الرفض ، لأنه لم يكن فى الواقع يحمل لها شيئاً من الحب ، وبعد أشهر ستة كتب إليها خطاباً ثانياً يرجى فيه خبر عثوره على سيدة أخرى تدير مدرسته وتشاركه فى حياته !

كان برانويل قد بلغ الواحدة والعشرين من عمره ، ومع ذلك لم يجد عملاً ، ولم يحترف مهنة ما ، وانقضت أيامه ولياليه فى حانة الثور الأسود يغرق فى كئوس الشراب الآلام فشله ، وضیعة آماله وأمانیه . وأغمضت تشارلوت عينيها عن الهوة التى ينحدر إليها ، إيماناً بنبوغه ، وثقة بما ينتظره من مستقبل عظيم ؛ ولكن إمبلى وقفت ترقب تطوراتهِ الجديدة حزينة واجمة ، وعندما سافر إلى برادفورد من أجل محاولة أخرى فى عالم الفن ، حزنّت على فراقه

في صمت ، وبين جدران حجرتها نظمت من أجله قصيدة الغياب :

« واحد ذهب ، ومن أجله خيا الموقد ، ورحل السرور . »

« واحد ذهب ، ومن أجله ذبلت الحدود ، ودمعت العيون . »

ولم يستفد برانويل من الرحلة إلى برادفورد ، وبدل أن يقبل على الفن تصادق مع صغار الفنانين المحليين ، وقضى ليلاته معهم في الفنادق والحانات ؛ وبعد شهرين قلّلت كف والده عن الاتفاق عليه فاضطر إلى العودة ثانية إلى هاوارث .

وما كادت تشارلوت تستعيد صحتها ، وهدوءها النفسى حتى زالها اليأس وعاودها النشاط ، وتحركت آمالها من جديد نحو العمل ، لانحو الشعر ، فقد كانت إجابة روبرت سودى ما تزال ماثلة في ذهنها . واستقر رأيها أخيراً على تجربة حظها في الأسرات ، فأرسلت شقيقتها آن لتربية أطفال مسرّ أنجهام ، والتحقت هي بأسرة چون بنسون سيدويك في ستون جراي . وقاست الفتاة الطموح مذلة هذه المهنة التي لم تكن في ذلك العهد تختلف كثيراً عن وظيفة الخادم : وكان البيت كبيراً جميلاً ، ولكن حياتها فيه غدت عبودية لا تحتمل ، فالأطفال في ضجيج دائم ، لا يردعهم لسان ، ولا يقيدهم نظام ؛ ومسز بنسون تترفع عن الاختلاط بالمرربة الجديدة . كتبت تشارلوت عنها إلى إلين تقول :

« ... نتحدث كثيراً ، ولكن قلما كان حديثها في الموضوع ؛ ولا يعينها

من أمرى شيء ، ولا يهملها إلا أن تنتزع منى أكبر مقدار من العمل .
ومن أجل هذا الغرض تفرقت بسبيل لا ينقطع من الحياة وأشغال الإبرة .
والآن أرى بوضوح أن مربية الأطفال لا يشعر أحد بوجودها ، ولا تعتبر
مخلوقاً حياً عاقلاً ، إلا فيما يخص الأعمال المنهكة التي يجب أن تقوم بها ... »
ولكن مستر بنسون كان يفضل زوجته .

« ... أطيب أخلاقاً وأرق قلباً ، لا يطلب منى أبداً أن أمسح أنوف
أولاده القذرة ، أو أربط أشرطة أحذيتهم ، أو أحضر ملابسهم ، أو أقدم
مقعداً لأحدهم ... »

وبعد بضعة أسابيع من التحاقها بعملها الجديد سافرت الأسرة لتمضية
العطلة في قصرهم الربيعي . وامتلاء البيت بالأضياف الأرستقراطيين المرحين
وأقيمت الحفلات الكبيرة الفاخرة ولكن تشارلوت ظلت حبيسة حجرتها
لا تتمتع بشيء من هذه اللذات ، لأن مربية الأطفال كالخادم يجب أن تبقى على
مبعدة حتى لا تعكر صفو الاجتماعات بوجودها ! وبقيت في حجرتها تبكي ،
ولكنها تعود على نفسها باللامعة وتقول : « إن الفقراء خلقوا للعمل ، لا للرحح
والسرور . »

وبعد أشهر ثلاثة تحطمت صحتها ، فتخلت عن عملها ، وعادت إلى
هاوارث ؛ لكن الأحزان التي قاستها في بيت بنسون سيدويك أفادتتها
فيما بعد ، فقد احتفظت بتلك الأحزان ، وطوتها بين جنبها ، لتفرغها
فيما بعد في كتابها « جين إير » . ولا شك أن الوصف الرائع لحياة جين

المرية ، والمهانة والاحتقار التي تجربتهما على أيدي ضيوف مخدومها مستر
روشستر صورة حقيقية استقتها من تجاربها الخاصة مع آل سيدويك .



وفي أواخر عام ١٨٣٩ — بعد أسبوعين من عودتها — واثت تشارلوت
فرصة ثانية للزواج : فقد هبط يوماً على الأبراشية ضيف جديد هو القس
برايس خريج جامعة دبلن . وكان برايس هذا شاباً ذكياً خفيف الروح
طلق اللسان ، لكن ينقصه الجلال والوقار ؛ وراثت تشارلوت كعادتها
عيبه في الحال ، ومع ذلك ضحكت من نكاته ، وأعجبت بمحدثه وكلامه .
وعندما رحل الضيف تسلمت منه خطاباً يطلب فيه الزواج ، فأجابته
برفض قاطع حازم ، لأن كبرياءها لم تسمح لشعورها بالقبح أن يهبط بها
عن المثل الأعلى للزوج الذي تنشده .

وعلى الرغم من أن هذا الحادث حرك قلب تشارلوت بعض الشيء ،
ودفعها إلى التأمل والتفكير ، غير أن الحياة طابت لها في الأبراشية ، وعاودها
المرح والهدوء بين أهلها وعشيرتها ، ولم تفكر في هجر البيت ثانية ، للبحث
عن عمل جديد ؛ وأرادت المقادير أن تشغلها عن نفسها قليلاً ، فألقت إلى
الأبراشية بقس صغير — هووليم وإيتان أول مساعد للوفاء في كنيسة
هاوارث — لم يستطع كسب عطفها واحترامها ، فصبت على رأسه جام
كراهيتها للرجال ، ونقمتها عليهم .

وكان وإيتان شاباً مثقفاً جميل الشكل ، ولكنه مرح يحب المغازلة ،

ولذلك قدم فروض الولاء والطاعة لجميع حسان الفتيات في المقاطعة ، وأجزل
 لمن الحب والإعجاب ، فأثار سلوكه غضب الفتاة المحرومة من كل حسن وجمال
 وكرهته وحقدت عليه ، وامتلاّت خطاباتهما بالحديث الساخر عنه ، وغمرته
 هو والقساوسة أمثاله بسيل من الشتائم القاسية ، والإهانات البالغة ، « لأنهم
 قوم مغرورون فارغو العقل يجرون وراء مصالحهم الخاصة » . وعندما خيل
 إليها أن ابن ناسى تعجب به جعلت تحذرهما الطريق الذى تسير فيه ، وتفهمها
 أنه رجل ماجن يوزع نظراته الساحرة على كل الفتيات بالعدل والتسطاس
 حتى خلال قيامه بواجباته الدينية .

وفي هذه الفكاهة الكبيرة كانت إميلي الصامته تلعب وحدها دوراً
 جدياً خطيراً : فقد أحبت القس الجميل المرح ، وطوت له في قلبها عاطفة
 لم تكنها لرجل من قبل ؛ ولكنها ظلت تقف بعيداً ، وترقب الحوادث دون
 كلمة تفضح سرها ، أو إشارة تكشف عن حبها ؛ فما كانت إميلي بالمرأة
 التى تقبل على الرجال قبل أن يسعوا حثيثاً خلفها ، وفي حجرتها الصغيرة
 نظمت قصيدة تقول في جزء منها :

« وبدموعى الكثيرة التى سكبتها ، »

« وساعات حزنى الطويل ، »

« سأكسبك حتماً يا حبيبي ، »

« وأنال قلبك من جديد . »

وتملكها اليأس والحزن ، وأحست أنها تشقى دون جدوى ، وتحب

دون أمل في الحياة ؛ فازداد بطلها الأسود وضوحاً ، وكبر « هيشكليف »
وترعرع في مخيلتها ، وأحب هو الآخر كاترين الجميلة في يأس وقنوط ،
وهو يعلم مثلها أن حبه لن يجد مردداً أو مجيباً .
وأيقظتها تشارلوت من أحلامها الطويلة بمشروع جديد هبط على قلب
إميلي كالصاعقة ، فقد بدأت تفكر في فتح مدرسة تقوم هي وأختها
بإدارتها والتعليم فيها ، واختمرت الفكرة في ذهنها ، ورسمت الخطة الكاملة
لها : فقليل من المال ، وبإضافة بناء صغير إلى الأبراشية يمكن أن تنقلب
الدار إلى مدرسة داخلية طيبة . ولكن المشروع في حاجة إلى المال ،
فمن أين لها بالنقود ؟ تذكرت خالتها التي تملك ثروة تدر عليها دخلاً يبلغ
خمسین جنياً في العام ، فإذا يمنع لو أنها اقترضت منها ما بقي من نفقات
المدرسة ؟ ولكن الحالة لم تكن على استعداد المخاطرة بثروتها في مشروع
قد يفشل ، ويودي بنقودها ، واحتاج الأمر إلى إقناع طويل .

في خلال عام ١٨٤٠ كانت تشارلوت ما تزال صديقة برانويل ، وأخته
المفضلة بين الجميع . ورأت فيه — على الرغم من كثرة زيارته لحانة الثور
الأسود — ما يبشر بمجد وشهرة ومستقبل باهر . ولم تكن تشارلوت مبالغة
في هذا الشعور ، فبرانويل — ولا شك — كان أنبع أولاد بروتي جميعاً ،
وأعظمهم صفات ومواهب ، ولولا المصير الأسود الذي انحدر إليه فيما بعد
خلد اسمه بين عمداء الأدب في التاريخ الإنجليزي : فقد سما أسلوبه إذ ذاك ،
وبلغ من الجمال والسلاسة والموسيقى ما يأخذ الألباب ، ونضج شعره عن
ذى قبل ، واتزنت أفكاره ، واتسع خياله ، وكل ذلك صفات تخلق من
صاحبها كاتباً عظيماً ومؤلفاً كبيراً .

ومع الصدمات المتكررة التي قابلها في طريق آماله وأطماعه بقيت
تشارلوت على ثقتها القديمة فيه ، وظلت تحرق بخور الولاء والإجلال عند
قدميه ، وتجد لذة عظيمة في الاشتراك معه في أعماله الأدبية .

ولم يكن من المعقول أن يبقى الفتى بين جدران الأبراشية دون عمل ،
فجعل يبحث هنا وهناك عما يليق به ، بعد أن خذله الأدب والرسم ، ولم

يمكنه من الوصول إلى ما يبتغيه ، فلما لم يجد عملاً لائقاً نزل مضطراً عن المستوى الذى يريده خطوة خطوة ، وانتهى الأمر بأن شغل وظيفة كاتب فى محطة صغيرة فرعية تتبع سكة حديد ليدز ومانشستر .

وتيقظت تشارلوت فجأة من غفوتها ، وتبينت الحقيقة المرة ، وأصيبت آمالها فيه بصدمة عنيفة لم تكن تتوقعها : برانويل يصبح كاتباً صغيراً؟؟!! أين العظمة والشهرة التى تنتظرها له؟؟ أين المواهب الغدوة التى توسمتها فيه؟؟ لقد ضمته إلى صدرها ، واصطفته من بين أخواتها أملاً فى أن يصبح شيئاً مذكوراً فى الحياة ، وها هو ذا ينتهى إلى شرغاية ، فيا لضيعة الآمال والوقت!! وانقلب حبها فجأة إلى كراهية ، واحترامها إلى احتقار ، وتقديرها إلى سخيرية . وكتبت إلى ابن ناسى :

« شخص اسمه باتريك^(١) ينتمى إلى من بعيد قد شد رحاله ، لبحث عن الرزق ، فى عمل عظيم كله مغامرات ومخاطرات ، ملئ بالفروسية والفن الجليل ألا وهو وظيفة كاتب فى سكة حديد ليدز ومانشستر!! ..

وفى عام ١٨٤١ بدأت الخالة تلين أمام تشارلوت ، وتستجيب لفكرة إمكان فتح مدرسة فى دار الأبراشية ، ورأت الآن أن المشروع قد ينجح فيحفظ مالها ، ويعود بالخير على بنات أختها ؛ ولكنها نصحتهم بالمران والتروى قبل المجازفة . وفى الحال بدأت تشارلوت تبحث عن وظيفة لها ، وأخرى لأن ، أما إميلي فلم يجرؤ أحد هذه المرة على إبعادها عن البيت .

(١) باتريك هو الاسم الأول لبرانويل برونى .

وعندما أقبل الربيع سافرت الإثنتان إحداهما لتعليم أولاد مستر هوait بالقرب من برادفورد ، والأخرى لتربية أطفال قس عجوز اسمه روبنسون وما كادت تشارلوت تحل في بيت مستر هوait حتى عاودها شعورها بكرهية من لا تجمعهم بها صلة القرابة ؛ وعلى الرغم من أنهم أحسنوا استقبالها ، لم تقدر هذا العطف منهم ، وظلت تنتظر في حذر الخشونة والاحتقار في المعاملة . كتبت بعد يومين تقول :

« ليس لدى حتى الآن سبب للشكوى من عدم التقدير أو القحة في المعاملة . . . »

وكانت تشارلوت بطبعها تكره الأطفال ، ولا تميل إلى صحبتهم ، أو التحدث اليهم ، ولذلك لم تعطف على تلميذها الجديدين ، ولم تحاول اكتساب حبهما ؛ وفي رسالتها إلى إين قست عليهما قسوة لا مزيد عليها واعتبرتهما خشنين غير مهذبين .

وتوثب خجلها الطبيعي الشاذ ، لينغص عليها حياتها ، ويحول بينها وبين الراحة والسعادة ، ومما كتبت في ذلك :

« أجد من الصعب جداً أن أسأل خادماً أو سيدي عن شيء أريده ، مهما اشتدت بي الحاجة إلى هذا الشيء . . . ولأن احتمل أعظم المضايقات أهون على من أن أطلب إزالتها . . . أعرف أنني بلهاء ولكن يعلم الله أنه لا حيلة لي في ذلك . . . »

وكانت الوظيفة في الواقع مرضية ، وأبعد ما يمكن عن الفظاعة التي

تتخيلها ، فالسيد هوait رجل طيب القلب كريم الأخلاق ، له زوجة
فاضلة عطوف ، وأولاد مهذبون ؛ وحاول الكل أن يكتسب محبة تشارلوت
فبأت المحاولة بالفشل ؛ والدليل على كرم أخلاقهم أن أرسلوا دعوة إلى
مستر برونتي ، ليأتي إلى زيارتهم ، ويقيم في ضيافتهم بضعة أيام . وكان
الوفاء على أتم الاستعداد لقبول الدعوة ، ولم يقعه عنها إلا خطاب شديد
من ابنته تمنعه فيه عن الجيء ، لأنها لا تريد من مخدمها جيلا يطوق عنقها
وهذا الشذوذ - دون شك - كان عقدة تشارلوت ؛ ومبعث حزنها
ومنبع آلامها طيلة حياتها ؛ فشعورها بقبحها الشديد ، قد ولد في نفسها نقصا
مركباً دفعها إلى بدء الناس بالكراهية والعداء ، وجعلها أميل إلى إظهار
أخطائهم ورذائلهم منها إلى ذكر حسناتهم وفضائلهم . وسلوكها مع آل
هوait صورة صادقة لهذا الاحساس ، فعطفهم عليها ، ورقتهم معها لم تحرك
قلبا أو تخضعه ، بل تقبلت الأمر في حذر وتخوف ، اعتقاداً منها أن هذه
المعاملة زائفة تخفي تحتها رغبة في الخيانة ، واستعداداً للنيل من كرامتها ،
ولأنها كانت شديدة الخجل أحست في حضرته بالضيق الشديد ، ولم
تحاول أن تحلل أسباب هذا الضيق ، أو تصل إلى دوافعه ، بل عزته إلى
نقص في أخلاقهم ، واعوجاج في شخصيتهم !

وكانت فكرة افتتاح مدرسة خاصة هي الشعاع الوحيد الذي ينير حياتها
في الوقت الحاضر ، ويبعد ذهنها في بعض الأحيان عن أفكاره الشريرة ،
واحساساته الشاذة نحو الناس . وحدث إذ ذاك أن قررت ناظرتها القديمة

مس وولر هجر مهنة التعليم ، فارسلت إلى تشارلوت تعرض عليها المدرسة برياستها وإدارتها دون مقابل ؛ وهي فكرة عظيمة تحقق أمل إبنة برونتي دون الحاجة إلى الاقتراض . واستسلمت تشارلوت إلى تفكير طويل : أتترك الخالة وشأنها وتقبل العرض ؟ ولكن لا ، لن تفعل ذلك ، فباستطاعتها أن تضرب عصفورين بحجر واحد ، وما دامت الخالة قد رضيت بتقديم المال ، فلتنهنز هذه الفرصة ، وتستفيد من المبلغ بطريقة ما . وهذا هو التفكير أخيراً إلى فكرة ثاقبة ، وهي أن ترجى قبول المدرسة ، وتسافر إلى بروكسل للدراسة في معهد بلجيكي ، لمدة ستة أشهر ، تعود بعدها إلى بلادها بمؤهلات تجذب أنظار الأهالي ، فتقبل الطالبات على مدرستها . ولم تلبث أن كتبت إلى الخالة تعلنها بالفكرة الجديدة ، وتقنعها أن المال لن يذهب سدى إذا انفق في التعلم ، بعد أن وجدت المدرسة والأدوات . وأجابت الخالة بالموافقة ، فهجرت تشارلوت عملها غير آسفة في أواخر عام ١٨٤١ استعداداً للسفر مع إميلي إلى بلجيكا ! وكتبت إلى إلين تقول : « . . . أردت أن تشاركني في هذه الميزة إحدى أختي على الأقل . . »



في خلال غيبة تشارلوت ، وعملها في بيت آل هوايت طابت الحياة لإميلي ، وانكبت على واجباتها المنزلية دون كلال أو ملل وكانت قد اعتادت هي وأن أن تكتب كلتاها للأخرى ورقة سرية كل عام ، فلا تفتح تلك الورقة إلا بعد سنة من كتابتها . ونصف الواحدة منهما في ورقها أحداث العام

الذى مضى وآمال المستقبل وأحلامه ؛ ومن الوريقة الأخيرة نرى أنها كانت سعيدة بين جدران الأبراشية مع نسرها «هيو» ، وكلبها المتوحش «كبير» ، « وفكتوريا » « وأديليدا » الأوزتين المستأنستين ؛ وختمت كتابتها بتحية حارة إلى « آن البعيدة المعذبة فى منفاهها » . ولكن تشارلوت كانت بعيدة أيضاً ومعذبة ، ومع ذلك لم تشر إميلي إليها بكلمة واحدة ، أو ترسل لها تحية ما ، وهذا دليل عظيم على أن النفور منها قد تضاعف ولم يدهمهما أسعدت أختها تشارلوت أم شقيت .

أما ورقة آن فكانت تقول :

« . . نحن نعمل جميعاً الآن ، لا اكتساب الرزق ماعدا إميلي ، ولكنها على كل حال تشتغل أكثر منا ، وتكتسب رزقها كما نفعل بفضل ما تقوم به من عمل كثير فى الأبراشية . . . »

فلم هذا التعليق والتوضيح ! لابد أن شخصا ما ذكر بقاءها فى البيت وانتقده ، مما حمل الأخت على الدفاع ؛ ولا شك أن تشارلوت هى ذلك الشخص ، بدليل أنها قررت أن تصحب إميلي معها إلى بلجيكا ، لتعدها لمهنة التدريس ، مع أنها تعرف تماماً ما يحدثه فيها البعد عن البرارى المحبوبة وعلى الرغم من أن آن كانت أحق بالذهاب ، لما تقاسية فى بيت روبنسون من تعس وشقاء ؛ وهكذا فضلت « أن تترك آن فى عذابها ، وأن تعذب إميلي بالرحيل » .

ولكن أوراق إميلي وخطاباتها لأن كانت فى الواقع زيفاً وخداعاً ، ولم

تحو شيئاً عن حقيقة الشعور الذى يعتمل فى قلبها ، والتشاؤم الذى وصفته
سراً فى شعرها وقصائدها كقولها :

« أرى حولى قبوراً داكنة ، »

« تنشر ظلالها من بعيد . »

وبين سطور هذا الشعر نحس باليأس المؤلم الذى يتجلى بعد ذلك فى
« مرتفعات ويذرnx » ، : فكاترين إرنشو — بطلة القصة — تحلم بالموت
مثل إميلي ، وترى رؤيا فظيعة ، وتحلم أنها ماتت ، وصعدت روحها إلى السماء
لتعذب وتقاسى الآلام ، ويلقى بها الملائكة الغاضبون خارج الجنة ،
فتسقط من حاملها وهى تبكى فرحاً ، لأنها مازالت على قيد الحياة تعيش
بين البرارى الواسعة التى تحبها .

ويأس إميلي الحقيقى كان يختلف فى مبعثه عما صورته فى كتابها عن
كاترين ، وإن تشابه معه فى الثورة والشدة : فهى تحب دون أمل سعيد
قادم ، وتطوى جها بين ضلوعها ، ولا تصارع به أحداً حتى آن . وهى
أيضاً تقاسى فراغاً ووحشة نفسية بدأت منذ طفولتها ، ثم نمت على مر الأيام ،
مما ولد فى نفسها شعوراً أصبح الآن حقيقة صارخة تقول : إنها طريدة
وحيدة سجين ، لا تملك حق التصرف فى حياتها ، أو توجيهها كما تشاء .
وشعورها الثائر الغاضب منحها فلسفة حزينة سمت بشعرها إلى أوج الجمال ،
وهو مالم تستطع تشارلوت أن تصل إليه فى أشعارها أبداً . حقيقة أن الأخت
الكبرى سجلت فيما بعد عبقرية نادرة فى عالم النثر ، إلا أنها اختلفت تماماً

عن عبقرية إميلي ، فتشارلوت وصفت في كتبها جميع تجارب حياتها ، ورسمت بدقة صور الأشخاص الذين عرفتهم أو قابلتهم ، وحملت حملة شعواء على من أغضبها منهم ، أو أساء إليها أقل إساءة ؛ فوهبتها إذاً تصويرية فقط ، ونبوغها ينحصر في قدرتها التامة على طبع الحياة ناطقة على ورق . أما إميلي فبتكره ، لا تخط ما تراه ، بل تصف ما يعتمل في ذهنها ، وما تصوره ملكة خيالها الجبارة .

وهذه الفروق الحيوية بين العبقرية والنبوغ هي أكبر عامل فرق بين الأختين منذ الصغر ، وحال دون تفاههما ، وارتباطهما بأي رابطة من الصداقة والأخوة . ولو كانت تشارلوت تفهم أختها ، لما اقتحمت عزلتها مرة بعد مرة ؛ ولو فهمت إميلي حقيقة عقلية تشارلوت ، ودوافعها النفسية ، لغفرت لها بدل أن تنقم عليها تلك النعمة التي ظلت تلازمها إلى آخر العمر . واستحكم النفور بين الأختين بعد مشروع السفر إلى بركسل ، فالرحيل بالنسبة إلى إميلي معناه بعدها عن براريها المحبوبة ، وحرمانها من الحرية المطلقة التي تتذوقها بين أحضان الطبيعة ، ومعناه أيضاً البعد عن وايتان ، والحرمان من الرجل الوحيد الذي تعلق قلبها به .

والقطعة الشعرية التالية — التي تقصد بها تشارلوت — تصور شعور إميلي نحو أختها ، واستحالة قيام الصداقة بينهما :

« بين الأحزان والسرور ، »

« لا تستطيع الصداقة أن تقوم ، »

« فالقلوب الحزينة عبثا تحاول »

« أن تنعم بالصدقة عند تحلى الآخرين . »

« أعرف حقاً أن عينك ها ذى »

« لن تقر وفى عيني الدموع ، »

« ولكن أعرف أن عينك أيضاً »

« لا تستطيع البكاء عطفاً على . »

« لنفترق إذا ، فقد ولى زمان »

« فيه تشابهنا فى الفكر والشعور ؛ »

« سأطوف وحدى عبر المحيط »

« وأهيم فوق صحارى البحار . »

« فبعد أمواجه العالية الصاخبة »

« جزر فيها يجول الحزن طليقاً ؛ »

« وسينعم يا عزيزتى مرقدك »

« عندما تزول رقابة عيني عليه . »

« ولن تضطرى صباح كل جديد ، »

« وقلبك يفيض حماسة وسروراً »

« أن تتظاهرى بالحزن والأسى »

« مجارة لليأس الذى أقاسيه . »

« ويوماً بعد يوم تحبو أمامك ، »

« وتذهب عنك ذكرى حزينة ؛ »

« إلى أن تتقطع كل الصلات ، »

« فأنسى وأصبح حليماً لديك . »

وكان برانويل أيضاً مبعث أحزان جديدة لبعض أفراد الأبراشية ، فقد اشتد القلق عليه : إذ بعد شهور ثلاثة من تسلم عمله ، نقل إلى (لادنن فوت) وهى محطة صغيرة فرعية ، قلما يمر بها قطار ، أو يأتى إليها مسافرون ، وفى هذا المكان المنعزل انقضت أيامه فى وحدة شديدة ، لا يبيدها سوى صحبة حارس باب المحطة ! وبرانويل شاب مرح ، يميل بطبعه إلى الصحبة والاثتناس ، ولذلك ضاعفت الوحدة حزنه ووجومه ، وطاردته آمال الماضى وأطماعه ، وعذبتة مواهبه الفذة ، وهى تلفظ الأنفاس الأخيرة فى صحبة الحارس ! ووازن بين حالته الراهنة وما كان يحلم به ، وخرج من الموازنة ييأس طاغ ضاعف استهتاره ، فأقبل على الخمر فى جنون ؛ وعندما حلت العطلة لم يأت إلى الأبراشية مع أنها لا تبعد عن مكان عمله أكثر من ميلين ؛ وعاد فى شهر يناير مفصولاً لاعتياده الذهاب إلى الحانة وترك عمله فى عهدة الحارس ، الذى استغل هذا الإهمال ، فامتدت يده إلى خزانة المحطة . وأثبت التحقيق تقصير برانويل ، ففصل من العمل عقاباً له على إهماله .

وحزنت إيميلي كثيراً على ما أصاب أخيها ؛ ولكن تشارلوت غضبت
 وثارت ، وضاعفت احتقارها له ، ونالته بلسانها الجراح ،
 وأسمعتة كثيراً مما يחדش الكرامة ، ويجرح الكبرياء : ألا يكفي أنه جرؤ
 على تحطيم آمالها الكبيرة فيه فيقترف اليوم جرماً جديداً يلوث به اسم
 الأسرة العتيد ؟ !

وفي فبراير عام ١٨٤٢ رحلت تشارلوت وإيميلي إلى باجيكا ، للتعليم في
 معهد مدام هيجير ببروكسل .

كانت مدرسة مدام هييجير معهداً أنيقاً تتعلم فيه بنات خيرة الأسرات البلجيكية ، ويضم بين جدرانها ما يقرب من مائة تلميذة بين داخلية وخارجية ؛ والمعهد نظيف أنيق ، وأثاثه فاخر مريح ، وحديقته واسعة فيحاء ، ومدرساته على مواهب كبيرة ومؤهلات عالية .

وفي بادئ الأمر أحسبت تشارلوت أن حياة التلميذة لاتناسبها ، فقد أشرفت على السادسة والعشرين من عمرها ، وأكبر زميلة لها لم تبلغ الثامنة عشرة بعد ؛ فضلا عن أنها اعتادت أن تكون الأمرة الناهية ، وهي الآن مضطرة إلى الخضوع لأوامر الآخرين ونواهيهم .

وعلى مضي الأيام أحببت المكان ، ووجدت فيه سعادة وراحة ، لم تتذوقهما أبداً في عملها مربية ؛ وعرفت أنها فرصة عظيمة ، عليها أن تنتهزها ، وتهل من موردها كل قطرة ممكنة ، فقبلت الخضوع للأمر الواقع ، والاستسلام للحالة الراهنة مهما كان فيها من عيوب . ولم يكن هناك عيب ما في حياتها الجديدة ؛ ولكن شذوذها المعهود ، وخجلها الطبيعي الشاذ ، وميلها إلى تعرف رذائل الناس قبل حسناتهم ، صور لها الكثير من النقائص

والأخطاء ؛ وكتبت إلى إلين تصف مدام هيجير :

« ... سيدة لها نفس ثقافة مس وولر وذكائها ، واتجاه أفكارها وذهنها ، وإن كانت ظاهرة الشدة فيها قد خففت ، لأنها لم تصدم كمس وولر ، أو تجرح في حياتها ؛ أو بعبارة أوضح لأنها سيدة متزوجة والأخرى عانس... »
وكان مسيو هيجير — زوج صاحبة المدرسة — يدير المعهد أيضاً ويعلم فيه ، فقالت عنه :

« ... رجل قوى الذهن ، ولكن مزاجه متقلب غضوب ... مخلوق صغير أسود ذو وجه متغير التعبير ، فأحياناً يستعير ملامح القط الوحشى ، وأحياناً يشبه الضبع الثائر وأعتقد أن الدروس القليلة التى تنازل بإعطائنا إياها ، تعتبر منحة كبيرة ، ولذلك أثارت على ما رأيت ، حقداً وغيرة فى المدرسة ... »

ولم تسلم الطالبات من نقدها اللاذع :

« ... إذا حكمنا على الشخصية الوطنية البلجيكية بشخصية معظم تلميذات المدرسة ، فهى إذاً باردة أنانية ، كلها حيوانية وانحطاط خلقى ... »

ولم يكن مسيو هيجير كما وصفته تشارلوت ، فهو رجل على الثقافة فذ المواهب ، ولذلك عين مدرساً فى الأكادومى ببروكسل . وكان أيضاً تقياً طيب القلب ، يزور المرضى والفقراء ، ويخفف عنهم بعطفه وماله ؛ وعندما تنتهى واجباته اليومية ، يجمع العمال والفقراء ، ويعلمهم ويثقفهم ويسليهم ،

دون أجر أو مقابل ، فأحبه الناس واحترموه ، وأحاطوا اسمه وسمعته بهالة من التقدير والتبجيل .

وعندما حلت الفتاتان الإنجليزيتان بمعهد ، جعل يرقبهما من بعيد في بادئ الأمر ، ليكشف عن حقيقة عقليتهما ، وقيمة ذكائهما الفطري ، فوجد أن تشارلوت ذكية مجتهدة ، وإميلى فذة المواهب تسمو فوق مستوى أختها بكثير ، وأعجبه اجتهداها وإقبالها على الدرس والتحصيل ، فمظف عليهما ، ومنحهما من جهده ووقته ما لم يمنحه غيرهما من الفتيات .

ولسبب ما خفت حدة خطابات تشارلوت ، وتضائل نقدها وتذمرها ، وبقيت في بروكسل عن طيب خاطر ، ووجدت في حياتها الجديدة فرصة لإشباع نفسها المتعطشة للعلم ، ووسيلة أكيدة لتحقيق آمالها نحو المستقبل ؛ وهذا غضبها على مر الوقت ، وعندما أوشكت الشهور الستة أن تنقضى تغيرت نغمت خطاباتهما ، واستمرأت الحياة هناك ، وكتبت تقول :

« ... أعتقد أن مسألة عودتي إلى البيت في شهر سبتمبر ما تزال موضع الشك ، فقد عرضت مدام هيجير علينا البقاء نصف سنة أخرى أقوم أنا خلالها بتدريس اللغة الإنجليزية بدل المدرسة الحالية ، وتعلم إميلى الموسيقى عدداً من التلميذات ؛ وفي مقابل ذلك سيسمح لنا بالاستمرار في تعلم الفرنسية والألمانية ، فضلاً عن الإقامة والطعام ... »

ولم تكن إميلى تتفق مع تشارلوت في هذه المشروعات والرغبات ، فمنذ رحيلها وهى تعانى أبلغ التعس والشقاء ، وعاورها حينئذها القديم إلى بيتها

وبراريها ، فذبل وجهها ، وتداعت صحتها وتملكها صمت ووجوم أفسدا عليها عملها ونزعتها .

و شاء الله لها الخلاص من الجحيم الذي تعيش فيه ، فقد وصلت رسالة مستعجلة من هاوارث ، يطلب مستر برونتي فيها عودة ابنتيه لمرض الخالة ؛ وفي اليوم التالي حمل البريد خبر وفاتها ، فحزمت القتاتان أمتعهما على عجل ، وسافرتا إلى الوطن في اليوم السادس من شهر نوفمبر عام ١٨٤٢ .

ولم تحزن تشارلوت على وفاة خالتها ، أو تبكيها بدمعة واحدة ، واكتفت عند وصولها إلى الأبراشية بزيارة قبرها زيارة قصيرة ، عادت بعدها إلى البيت ، لتكتب خطابا تقول فيه :

« ... انتهى كل شيء ، ولن نراها بعد الآن ، أما والدي فيخير ... »
وبعد أسبوعين أرسلت تدعو إلين ناسي لقضاء بضعة أيام في هاوارث وتقول :
« .. لا تنتظري أن تجدينا في حزن ووجوم ، فنحن نسير جميعاً على منهاجنا المعتاد ... »

وجدت إميلي أحزاناً جديدة تنتظرها في الأبراشية ، فبرانويل مايزال عاطلاً عن العمل ، يقضي أيامه بين جدران الدار ، ولياليه في حانة الثور الأسود ، لحزنه على وفاة الخالة التي كانت تعطف عليه وتدله وتضطفيه ، ولعجزه عن الحصول على وظيفة جديدة ، رغم ما بذل من جهد في سبيل

ذلك وأقبل على رذيلة جديدة ، فتعاطى الأفيون ، وبذلك خطا الخطوة الأخيرة الحاسمة نحو نهاية محتومة مفجعة .

وحزنت إميلي جهراً على ما أصاب أخاها ، وحزنت سراً على مصاب أدهى وأمر ، فقد مات وايتمان بعد مرض قصير لم يممه غير أيام معدودات ، فبكته في خفية عن العيون ، ونظمت في وداعه قصيدة رائعة عنوانها « الذكري » تقول في جزء منها .

« يا حبيب الشباب ، اغفر لي إن نسيتك »

« في غمرة من الحياة ، وهو يحملني إلى بعيد ، »

« فرغبات وآمال أخرى تشغلني : »

« آمال قد تغشاك ، ولكنها لا تستطيع أن تخفيك »

« لم يشرق في سمائي نور بعدك ، »

« ولا طلع على صباح جديد ، »

« فبهجة حياتي من حياتك أخذت ، »

« و بهجة حياتي معك الآن في القبر »

وتتطور بعد ذلك أشعار إميلي ، فتصبح غاضبة ثائرة ، تتحدث مع الرياح وتناجي الليل والعواصف ، وتنادى الموت في رغبة وشوق ، وهو دليل على أن يأسها قد اشتد حتى عافت نفسها الحياة . ولكنها لا تريد أن تموت لتذهب إلى الجنة ، فأهل الجنة لا يحسون بآلام البشر وعذاب قلوبهم ولا تريد أيضاً أن تذهب إلى الجحيم فبيرانها مهما اشتدت لن تأكل

أو تخدم رغبات قلبها الجائعة ؛ إذا فالأرض مكانها الوحيد وعلى صدرها
الحنون يجب أن ترقد ، ليفنى جسدها فى التراب ويختلط به ؛ فيصبح جزءاً
مخلداً منه . الأرض هى صديقها الوحيدة ، ومهما قست فهى لا تريد عنها بديلاً :

« فى الأرض - نعم فى الأرض - ستنامين ، »

« ومن فوقك يقوم حجر أغبر ، »

« وتحثك ينتشر طين أسود ، »

« وطين أسود يغطيك . »

وخفت آلام إميلي بعض الشيء عندما اهتدى براويل أخيراً إلى عمل ،
والتحق بأسرة روبنسون ، ليعمل مع آن فى تعليم أولاد القس العجوز ،
فسافر مع أخته فى شهر ديسمبر عام ١٨٤٢ .

أقبل العام الجديد وتشارلوت ما تزال حائرة قلقة بين جدران الأبراشية ،
لا تعرف أعود إلى بروكسل أم تبقى فى هاوارث ؟ واشتدت بها الحيرة إلى
درجة ملحوظة ؛ وذلك دليل على أنها كانت تقاسى بين جنبىها صراعاً
شديداً ؛ وأخيراً تسلم والدها رسالة رقيقة من ميسيو هيجير يقنعه فيها بضرورة
إرسال ابنته الكبرى ، لتدريس اللغة الإنجليزية ، ومعاونة زوجها فى المعهد .
وقضت هذه الرسالة على كل حيرة وقلق ، فجمعت حوائجها ، وشدت رحالها
ثانية إلى بروكسل ، وكتبت فيما بعد إلى إيلن خطاباً تقول فيه :
« . . . عدت إلى بروكسل ضد ضميرى ، مدفوعة بشعور خيل إلى »

إذ ذاك أنه لاسبيل إلى مقاومته ، فعاقبني الله على أنايتي وجنوني بحرمانى
من السعادة ، والراحة الذهنية مدة تزيد على عامين . . . »

فأى معنى لهذا الكلام ؟ ولماذا تكون عودتها إلى بروكسل مخالفة لضميرها ؟
وكيف قضى جنونها وأنايتها على سعادتها الذهنية مدة طويلة ، فى الواقع
أن لهذا الخطاب أهمية تاريخية كبرى ، وبفضل الجمل التى أتينا على ذكرها
استطاع المؤرخون بعد وفاتها بأعوام أن يهتدوا إلى سر كبير فى حياتها أمكنها
أن تخفيه عن العيون حقبة من الزمن .

فى خلال الشهور الأخيرة لإقامتها الأولى فى بروكسل ، اقترفت تشارلوت
القوية الحازمة سخافة كبرى تتلخص فى أنها أحبت مسيو هيجير زوج ناظرها
والذى شبهته فيما مضى بالقط الوحشى والضبع الثائر !! وأحست أن عودتها
إلى معهدة معناها مضاعفة حبها لرجل متزوج كاثوليكي ، مما قد يؤدى إلى
نتائج خطيرة ، ولذلك ترددت كثيراً فى العودة حتى جاءت رسالته ، وقضت
على ترددتها فى الحال .

ولم يكن مسيو هيجير يعرف شيئاً عن هذا الحب أو يريده ، ولم تكن
زوجه الطيبة تتصور يوماً أن الفتاة الإنجليزية الباردة قد تشغف برجل
متزوج أشيب الشعر ، ولذلك أرسل الخطاب لدعوتها ، واستقبلها عند
حضورها فى حفاوة وترحيب . ولم يقتصر كرمها على ذلك بل تعداه ، إذ
خصصا لها مكاناً طيباً ، ووضعاً حجرة جلوسهما الخاصة تحت تصرفها .
وطابت لها الحياة بينهما ، لأنها استطاعت أن تخفى حبها فى حذر ، وامتلأت

خطاباتها بآيات الرضا والقنوع ، وهو شعور لم يسبق أن أظهرته تشارلوت في أى فترة من فترات حياتها .

ولكن حبها ازداد وطفى ، وبدأت عوارضه تنسلل إلى وجهها ، وكثر القيل والقال ، وتساءل الناس عن حقيقة الأسباب التى دفعتها إلى العودة إلى بروكسل ، فكتبت إلى إلين تقول :

« ... يبدو أن هناك بضعة أشخاص يعتقدون أن فى أورية زوج المستقبل للآنسة تشارلوت ... فلا يستطيع هؤلاء أن يصدقوا أننى عبرت البحر فقط ، من أجل أن أعود إلى مدرسة مدام هيجير . . »

وخلق بهذا الغط أن يكبح جماحها بعض الشيء ، ولكن تشارلوت فى الواقع كانت قد فقدت السيطرة على نفسها ، وإهمال الحبيب أذكى نيران الحب فى قلبها ، وغدا الأمر واضحاً للعيان ، ورأته مدام هيجير ، كما رآه زوجها الكاثوليكي التقى ، فغضب ونقم ، وبدأت متاعب الفتاة تتوالى منذ ذلك العهد ؛ فقد تنكر الزوجان لها ، وعاملاها بمنتهى البرود والتحفظ ، وأحست أن الكل يتجسس عليها ، وأن الأنظار ترقب كل حركة من حركاتها ، وأن الأسماع تنصت إلى كل كلمة من كلماتها ، فارتبك أمرها ، واسودت أيامها . وانقضت الشهور وهى تقاسى ألوان الشقاء ومع ذلك تصر على البقاء ، ولا تفكر فى العودة إلى بيتها .

وتغيرت نعمات خطاباتها ، وامتلات الصفحات بالنقمة على مدام هيجير ؛ فهى امرأة حقيرة لا أخلاق لها ، تتجسس على كل فرد ، وتمتد العالم

أجمع ما عدا نفسها ، ولا يهتمها من أمر من يشتغلون معها شيء اللهم إلا إنجاز
أكبر كمية من العمل . أما القط المتوحش والضيع الثائر فقد غدا أرق الناس
خلقاً ، وأشدهم عطفاً ، وأحقهم باحترامها ، لأنه الوحيد الذي يزيل عنها
ضيقها وبؤسها .

وكما ازدادت قسوة هيجير عليها ، ازدادت تعلقاً به ، وحباً له ، ولم تحتمل
هذا الجهد النفساني ، فانهارت تحتها ، واسودت أيامها ، وتملكها حزن قاتل
خلف على وجهها آثاراً ظاهرة . وقام ضميرها ينهها عن هذا الحب الخطير
وأنكرت عقيدتها الشغف برجل متزوج لا يريد لها ؛ ومع ذلك أبقى قلبها
أن يصغى لهتافات العقيدة والضمير . وفاضت بها الآلام فنفرت من الناس ،
وراحت تتجول بين القبور ، لتفرغ فوقها دموعها وأحزامها ؛ وبلغ بها اليأس
يوماً أن ذهبت — وهي البروتستنتية المتطرفة — إلى الكنيسة الكاثوليكية
وركعت أمام القس تعترف له !

وانقضى العام تقريباً ، وأقبل شهر ديسمبر ، وتشارلوت لا تجد الشجاعة
للرحيل ، فقلقت أسرتها عليها ، وانتابت إميلي الهواجس ، فكتبت إلى
إلين تقول :

« . . لم تشر بكلمة واحدة عن عودتها إلى البيت ... فإذا استطعت
السفر إليها ، والبقاء معها نصف عام ، فربما أمكنك إحضارها معك عند
العودة ، وإلا بقيت هناك إلى الأبد . . . »

وعند ما تعقدت الأمور ، وذافت تشارلوت من كأس المذلة ألواناً ،

تحركت إرادتها الحديدية بعد غفوة طويلة ، ففقدت العزم على هجر بروكسل
جمعت حوائجها ، وشدت رحالها الى الوطن ، وعند الرحيل بكت وهي تودع
هيجير بكاء حاراً ، ولكنها توعدت زوجها قائلة : « سأنتقم ! »

ووصلت إلى هاوارث في اليوم الثاني من شهر يناير عام ١٨٤٤ ، فما إن
وصلت حتى كتبت إلى الين تقول :

« ... قاسيت كثيراً عند مغادرتي بروكسل ، وأعتقد أنني لن أنسى
ما حيت ما كلفنيه وداع مسيو هيجير . فقد أحزنتني أن أولم من كان خير
صديق طيب نزيه ... »

عند ما استقرت تشارلوت في دارها ، وهبطت عليها الوحدة ، وشملها
 السكون ، قام قلبها يصرخ ، ويعذبها بسره الدفين الذى يجمله العالم أجمع ،
 ما عدا هيجير وزوجته ، فأقبلت على العمل ، عله يخلصها من أفكارها
 وأحزانها ؛ ووجدت في مشروع المدرسة ما يشغلها ، فجمعت أشقات قوتها
 وشجاعتها ، وانهمكت في التدبير والترتيب .

واختلفت الأحوال الآن عن الماضى كثيراً ؛ فالحالة قد أورثت كل واحدة
 من الفتيات ثلثائة جنيه ، وهو مبلغ يزيد على نفقات المدرسة ، ومطالبها
 المتنوعة . ولم يعد عرض مس وولر يناسب الظروف الحاضرة ، بسبب
 الضعف الشديد الذى أصاب بصر مستر بروتنى ، فاقضى بقاء بناته على
 مقربة منه ؛ ولذلك قررت تشارلوت أن تكون المدرسة فى الأبراشية ،
 وقامت مسرعة بإعداد المكان اللائق لها .

وتمت الاستعدادات ، وطبعت النشرات ، وتقررت المصروفات ، ولم
 يبق شئ على الافتتاح غير التلميذات ؛ ولكن الأيام مضت متشاقة ،
 وتبعها الأسابيع فالشهور ، ولم تقبل طالبة واحدة على المكان ! وقامت

تشارلوت بدعاية ثانية واسعة ، وكتبت الخطابات إلى الأصدقاء ، فأجابها الكل بتمنيات طيبة ، ولكن لم يبعث أحدهم بيناته إليها . وبدأت أمانيتها تنقبض شيئاً فشيئاً ، حتى تقلصت ثم تلاشت تماماً ، وبدأت لها الحقيقة سافرة : فلقد ضيعت شبابها دون طائل ، وقاست ويلات العمل في الأسرات وتغربت عن وطنها ، وأتعست أختيها وأشقتهما من غير فائدة ! وخرجت من التجربة الجديدة وقد ازدادت مرارة ، وحقدت على المجتمع الفارغ الذي لا يعرف قدر المواهب والنبوغ .

ولم يكن الفشل في ميدان العمل هو كل ما يؤلم تشارلوت ، فقد كانت تعاني معه فشلاً عاطفياً خطيراً . فحبها لمسيو هيجير ازداد بالبعد لوعة والتهاباً مما أورشها الحزن والسهاد ؛ وتحطمت كبرياؤها العظيمة ، وزايلها البرود والجمود ، فأقبلت على الورق والقلم ، وكتبت إلى من تحب خطابات حارة ، مليئة بالذلة والخضوع ، تستجدي فيها حبه وعطفه . قالت في واحد منها : « . . . أعلم جيداً أن دورى في الكتابة إليك لم يحسن ، فلقد سبق أن أرسلت إليك خطاباً كتبته بقليل من الحكمة ، لأن العذاب كان يملأ قلبي ولكنني لن أفعل شيئاً من هذا القبيل مرة أخرى ، ولن أكون أنانية ؛ إن خطاباتك أعظم نعمة في الحياة ، وسأبقى في انتظارها صابرة . . . » وأصم لمسيو هيجير أذنيه عن هتافاتها ، ولم يرسل شيئاً مما تعتبره أعظم

نعمة في حياتها ، فتملكها اليأس ، وراحت تهدد في رقة بالعودة إلى بروكسل ، وكتبت إليه :

«.... أقول مرة أخرى وداعاً يا سيدى ويؤلمنى أن أودعك ، حتى في خطاب . من المؤكد أننى سأراك ثانية ، بل يجب أن أراك ، وسأعود إلى بروكسل يوم أقتصد من المال ما يكفي للسفر ، وسأراك ثانية ولو دقيقة واحدة ...»

ومضت الأسابيع والشهور ولم تصلها كلمة منه ، فغفل إليها أن القسوة لا يمكن أن تبلغ به الى هذا الحد ، وعزت صمته إلى أساليب زوجته ، واتهمتها بإخفاء خطاباتها عنه ، ولذلك انتهزت فرصة سفر صديقتها ماري تيلور وشقيقتها إلى بروكسل ، وحملتهما خطاباً ثالثاً إليه ، ورجعتهما تسليمه يدأليد . وعاد مستر تيلور ، ومن بعده عادت شقيقته ، ولم يحمل أحدهما إجابة لها ، فكتبت إلى مسيو هيجير تقول :

« عاد مستر تيلور ، وسألته أيحمل منك رداً لى ، فأجاب « لا شئ » . قلت لنفسى صبراً ، فستعود شقيقته عما قريب ، وجاءت مس تيلور ، وقالت « لست أحمل لك شيئاً من مسيو هيجير ، لا كلمة ولا خطاباً » إننى لا أجد الراحة أو السلى ليل نهار ، وإذا نمت أزعجتني أحلام أراك فيها دائماً جامداً مقطباً غاضباً ، وأسمعك تقول : « إننى لا أحفل بك مثقال ذرة يا آنسة تشارلوت ، فلست من أفراد أسرتى الآن ، ولقد نسيتك تماماً ! » إذا كان ما سمعته فى الحلم حقيقة واضحة ، فلماذا لا تقول ذلك فى صراحة ؟

أعرف أنها ستكون صدمة شديدة إن فعلت ، ولكن أثرها سيكون أخف وطأة من الشك وعدم اليقين »

ومرت شهور ، وانقضى ما يقرب من عامين ، ولم تصلها كلمة واحدة رداً على خطاباتها الملتبئة ، فلم يهزم قلبها ، ولم تبرد عاطفتها ، وكتبت إليه في أواخر عام ١٨٤٦ تقول :

« أنتظر خطاباتك يوماً بعد يوم ، وكل يوم تهبط على صدمة شديدة ، تغمرني بأحزان مبرحة ، ويتنازعني شبح خطك الجميل ، فتنتابني الحمية ، وأفقد شهوة الطعام ، ويهجرني النوم ، وأذبل . . . »

والحقيقة أن مسيو هيجير كان يتسلم خطابات تشارلوت ، ويمزقها في صمت ، ويلقي بها إلى سلة المهملات ، فتدخل زوجته بعد انصرافه ، وتجمع قطع الورق ، وترتبها معاً ، ثم تحتفظ بها بعد أن تلصقها على ورقة . وظلت الخطابات الأربعة في حوزتها سنوات طويلة ، وبفضلها استطاع المؤرخون أن يفسروا سبب عودة تشارلوت إلى بروكسل ضد ضميرها ، ولماذا عاقبها الله على أنانيتها سنوات .

وأسدل الستار مؤقتاً على المأساة العاطفية ، التي خرجت تشارلوت منها مجعدة محطمة ، ولكن هذه المأساة بالذات منحها مادة غزيرة عند ما زاولت التأليف فيما بعد ، في كتابها الثالث « قيلت » : وصفت حبها الطاغى لأستاذها ، وانتقمت من زوجته بأن كالت لها الإهانات بغير حساب . وقرأ العالم الأوربي أجمع هذا الكتاب الخالد العظيم ، فاحتقر مدام هيجير

واستنزل على رأسها اللعنات ، فحققت تشارلوت بذلك وعيدها القديم
عند ما قالت « سأنتقم » !

ولكن مدام هيجير ردت الانتقام مثلاً بمثل . فبعد وفاة تشارلوت
بسنوات . أخرجت الرسائل من مخبئها ، وسمحت للمؤرخين والكتاب
بقراءتها ، لتكشف للناس عن سر حفيظة تشارلوت ، ودافعها الحقيقي
للسباب . وأحدثت الرسائل ضجة كبيرة ، ورفعت الستار عن أئمن ما
حرصت تشارلوت على إخفائه طوال حياتها ، فنجحت بذلك في إثارة
اللفظ حول اسمها وسمعتها .

وكانت فترات الضيق والغضب هي أخطر عهود تشارلوت : ففي غمرة
أحزانها تصب جام نغمتها على المجتمع ومن يعيشون فيه ، وتتضاعف فيها
القدرة على كشف أخطاء الناس ورذائلهم ، وتنشط ذاكرتها ، وتسجل
مثل عدسة مصورة ، دقائق شخصية من تختارهم ليكونوا منبع تلك الأخطاء
والرذائل ، وتخفي هذه الصور في حرص ، حتى تواتيها الفرصة للتشهير
والتمثيل بهم .

والفترة التي تلت خيبتها في حب مسيو هيجير ، وخبيتها في افتتاح
مدرسة خاصة ، مثل صادق لعهودها الخطيرة ، فقد تملكها الحزن والضيق
والسأم ، فكتبت تقول :

« سأبلغ الثلاثين بعد قليل ، ولم أفعل شيئاً مجدياً حتى الآن ، وتنتابني

في بعض الأحيان كآبة أحس بظلمها يخيم على حاضري ومستقبلي ؛ ولكن من الخطأ أن أتدمر ، فالواجب يحتم على البقاء في البيت في الوقت الحاضر .. ولقد كانت هاوارث فيما مضى مكانا جميلاً حبيباً إلى نفسي ، ولكنها ليست كذلك الآن ، وأشعر أننا قد قبرنا جميعاً هنا ، ولذلك أتوق إلى حياة نشيطة كلها عمل وترحال »

ولم يكن الترحال أو العمل ميسوراً ، فوجهت نشاطها إلى القساوسة الذين يساعدون مستر بروتي في كنيسته ؛ وجعلت ترقبهم بعينها القاسية الناقدة . فوجدت أنهم لا يستحقون في نظرها تقديراً أو إكباراً ، ولذلك أمطرتهم وابلاً من الاحتقار والمهانة ، نال منها مستر نيكولز - الذي تزوجها فيما بعد - نصيب الأسد ! وكتبت عنه إلى إلين تقول :

« لا أستطيع أبداً أن أجد في هذا الرجل أى عنصر طيب ، كالذى عرفته أنت فيه ، فغباوته وضيق تفكيره يستوقفان نظري قبل كل شيء . » وفي خطاب آخر تقول عنه :

« إنه كغيره من القساوسة غبي ثقيل الظل ، لا يبعث وجوده تسلية في النفوس »

وعندما سافر في عطلة إلى إيرلندا ، قالت :
« ... تمنى كثير من الناس ألا يتعب نفسه بالعودة ثانية ، وما هذا بالشعور الذى يجب أن يربط بين راع ورعيته »
وكانت تشارلوت قاسية في حكمها على القساوسة ، ولكنها تمسكت

بهذا الحكم سنوات عدة ؛ وعند ما ألفت كتابها الثانى «شيرلى» خصصت لهم جزءاً كبيراً منه ، صبت فيه جام غضبها عليهم وازدراءها لهم ، ووصفتهم وصفاً دقيقاً ، ففرغهم الناس ، وعرفوا هم أنفسهم ؛ ولكنهم لم يغضبوا منها ، أو يحقدوا عليها ، وظلوا على علاقة طيبة بها ، مما أخرجها ، وأورثها الندم .

وأراد الله أن يرحم القساوسة من شرها مؤقتاً ، بأحداث جديدة شغلت ذهنها ، وأبعدته عن التفكير فيهم : فى شهر يونيه عام ١٨٤٥ تركت آن عملها فى بيت رونسون العجوز ، وعادت مع أختها إلى الأبراشية ، لقضاء العطلة مع الأسرة . وبعد بضعة أيام من عودتهما تسلم برانويل خطاباً من مخدمه يفصله فيه من العمل ، ويهدده بالفضيحة إذا حاول الاتصال بأى فرد من أفراد بيته . وكان الخطاب صدمة شديدة لبرانويل ، ولم يتقبله فى هدوء ، وثار ثورة جنونية ، واستسلم للبكاء والعويل حتى أصيب بنوبة عصبية حادة ، تركته مرثياً ضعيفاً .

ولم يكن من المعقول أن حرمان الفتى من عمله الزهيد يسبب كل هذه الثورة وذلك الجنون ، وتساءلت الأسرة عن حقيقة الأسباب التى دعت رونسون العجوز إلى هذا التصرف ، فتطوع برانويل بذكر قصة عجيبة محزنة : فقد أحب زوج مخدمه الجميلة ، وبادلتها الحب والعطف ، فلما علم الرجل بما بين أم أولاده ومر بهم ، طرده تلك الطردة الشنيعة ، وهدده بالفضيحة إن عاود الاتصال بها . وأعلن برانويل أنه جد شغوف بهذه

المرأة ، ولا يستطيع البعد عنها ، وما دام الزوج قد فرق بينهما فلا راحة إلا في الانتحار .

ووجدت تشارلوت في الحادث الجديد ما ضاعف كراهيتها لأخيها ، وحقدتها عليه ، وأحست أن حياته سلسلة أخطاء ، لا يمكن أن تغتفر ؛ واستعرضت أمام ذهنها تاريخه الحافل . فقد بدأ الحياة صبياً جميلاً موهوباً ، وبرزت مواهبه الفذة العظيمة ، فاعترت بها ، وغالت في تقديره ومحبته . وعلى مر الزمن لم تأت المواهب بالنتيجة التي كانت تتوقعها ، وبدل أن يصبح قائداً سياسياً ، أو كاتباً عبقرياً ، قنع بوظيفة كاتب صغير في محطة فرعية ، فذهب حبها هباء ، وضاعت السنوات في تقديس معبود لا يستحق العبادة أو التقديس ! وكشفت لها الأيام المزيد من خيبته ، إذ فشل في كل عمل صغير قام به ، وجلب كثيراً من الفضائح التي أساءت إلى اسم برونتي كل الإساءة .

وانقلب حبها لصديقها وحليفها القديم حقداً مريراً ينبعث من قرارة قلبها ، وازداد هذا الحقد تأججاً بما أبداه من ضعف أمام محنته القلبية الجديدة . ولو كانت تشارلوت — التي تقاسى الآن عذاب غرام يائس — على شيء من الإنسانية والحس ، لعطفت وأشفقت على أخيها ؛ ولكنها بدل أن تشفق وتعطف ، وازنت بينه وبين نفسها فلقد أحبت وفشلت ، مثلاً أحب وفشل ، وما زالت تذوب شوقاً إلى زوج امرأة أخرى ، كما يذوب هو شوقاً إلى امرأة رجل آخر ، غير أنها لم تبك ، أو تفصح سرها ، أو تهدد

بالانتحار ، بل طوت سرها بين جنبيها ، وحرصت على إخفائه عن العيون .
 حقيقة أنها كانت تكتب الى حبيبها رسائل ذليلة تستعطفه فيها ، وتستجديه
 فتاتاً من مائدته العامرة ، ولكنها رسائل خاصة لا يعرفها غير صاحبها فقط .
 وخرجت تشارلوت من تلك الموازنة القاسية بنتيجة حازمة تقول : « ان
 برانويل ضعيف محروم من الرجولة ، وهي لا تعترف بالضعفاء في الحياة ! »
 ولم تكن تشارلوت عادلة في هذا الحكم ، فالأقدار وحدها هي التي
 ساعدتها على الظهور بمظهر القوة والجبروت ! وبفضل نبل أخلاق مدام
 هيجير استطاعت أن تتمتع طيلة حياتها بتقدير الناس واحترامهم . فلو أن
 السيدة البلجيكية بعد أن أحييت الرسائل من سلة المهملات بعثت بها إلى
 مستر بروتى ، أو نشرتها أيام مجد تشارلوت وشهرتها ، لتحطمت كبرياؤها
 المزيفة ، وانهارت قوتها المصطنعة ، وظهرت للعالم أجمع على حقيقتها ، وعرف
 الناس أنها أقل قوة من برانويل ، وأشد جنوناً وعبثاً !
 ولكن تشارلوت كانت تغفر لنفسها دائماً ، وتلتمس لأعمالها معاذير
 وأسباباً ، ثم تنكر الغفران على الآخرين ، ولا تقر معاذيرهم وأسبابهم ؛
 فغالت في احتقارها لبرانويل ؛ وقسوتها عليه ، وقاطعتة كل المقاطعة ، ولم
 تبادل كلمة بعد ذلك حتى مات واختفى عن نظرها إلى الأبد . وامتلات
 رسائلها إلى أصدقائها بعد حكمها الجائر عليه بآيات إذلاله واحتقاره ، وكتبت
 إلى إلين تقول :
 « ... لقد تداعت آمالي في برانويل وأخشى أنه لم يعد أهلاً لأى

عمل كان ، فردائله تبدو متأصلة في نفسه ، وتقائمه أعرق كثيراً مما كنت
أظن ، والصدمة الأخيرة التي تلقاها جعلته مستهتراً ، ولا يجد من جنونه
غير حاجة الشديدة إلى النقود » .

وفي خطاب آخر تقول :

« . . . لا يبذل برانويل أى جهد في سبيل البحث عن عمل ،
وما دام في البيت فلن أدعو أحداً للحضور ، ومشاركتنا في بلوانا . . . » .
وفي رسالة ثالثة تقول :

« . . . كلما ازددت معرفة به إزددت حزماً في قرارى . وددت لو
أمكننى أن أقول كلمة طيبة واحدة عنه ، ولكن لا أستطيع ، ولذلك
أفضل الصمت . . . » .

وقفت إميلي ترقب الأحداث الجديدة صامتة هادئة ، فما هي بالمرأة التي
تشهر مشاعرها ، وإحساساتها لأحد ، أو تمكن إنساناً ممن يعيشون حولها
أن يجد طريقاً إلى قلبها ، وما يعمل فيه . وكان هدوء إميلي باطنياً في
ناحية ظاهرياً في ناحية أخرى : ففشل مشروع المدرسة لم يحزنها — كما
أحزن تشارلوت — بل ملأ قلبها رضا واطمئناناً ، فما رغبت يوماً في مدرسة
ولا أرادت التدريس مهنة لها ، ولذلك رحبت كثيراً بأن انتهى الأمر
بلا شيء .

ولكن إميلي كانت حزينة غاضبة إذا ذكرت برانويل وأحداثه : فهي
ما تزال تحب أخاها حباً شديداً طاغياً ، وتجذب في حالته الراهنة ما يوجب
العطف والإشفاق ، فهو ملك ضل طريقه ، فحق على عباده القدمات أن يأخذوا
بيده في محنته ، ليعودوا به إلى سواء السبيل . وشغلت أحزان برانويل
قلبها ، وملأت فراغ نفسها المحرومة ، فحنت عليه ، وأشفقت على ما أصابه
من تعس وشقاء . ورأت أن تشارلوت حليفته القديمة قد تخلت اليوم عنه ،
وقلبت له ظهر الجنب ، وعذبت به بقطيعتها ، وآلمته باحتقارها ، وحطمت

كبريائه بمختلف أنواع المهانة والإذلال ؛ فثارت على أختها القاسية
وازدادت كراهية لها ، ونفوراً منها ، وبعداً عنها . ونضج في مخيلتها ريبها
الأسود «هيشكليف» بطل (مرتفعات وذرنج) ، وعاش هو الآخر صامتاً ، وإن
امتلاً قلبه بالبغض والكراهية ، وجعل يتربص الفرصة للانتقام من أعدائه
انتقاماً يحطمهم حتى لا تقوم لهم قائمة ، ويترك في نفوسهم أثراً لا يزول .
ووقفت إميلي صامتة كريبتها هيشكليف تنتظر في حذر لتنزل الضربة القاضية
فوق رأس من لا تحب .

وبين جدران الحجرة الصغيرة تعتكف إميلي كل مساء ، وتقرض الشعر
سراً ، لتخفف من أحزانها وبلواها ؛ وفاضت قصائدها في ذلك العهد
بعاطفة عجيبة جياشة ، فهي تنتظر روحاً يهبط عليها في هدوء الليل وظلامه ،
ليملأ فراغ حياتها ، ولذلك توقد مصباحاً صغيراً ، وتضعه كل ليلة في نافذتها ،
ليعرف الروح أنها على استعداد وفي انتظار :

« احترق إذاً أيها المصباح الصغير ، ودع الضوء يلمع في وضوح . »
« صه ! اسمع رفرقة أجنحة ، أظنها تحرك الهواء ؛ »
« أن من طال انتظاره قد أتاني . »

« أيتها القوة الغامضة ، إنني أثق بقدرتك ، فثق باخلاصي »
وزادت الإحساسات الجديدة أميلي بعداً عن الجميع ماعداً آن ، وعاشت
بين جدران الأبراشية كأنها غريبة عنهم ، لا يعينها أمر أحد ، ولا يعنى
بأمرها أحد .

وخرجت يوماً للزهوة في البرارى ، فقابلها كلب مريض يلهث تعباً ،
وقد تدلى لسانه من فمه ، فأخذتها الشفقة عليه ، واقتربت منه لتخفف عنه
فاندفع نحوها في جنون ، وعقرها في ذراعها بوحشية . وتملكها الرعب ،
وخشيت أن يكون كلباً ، فينتقل الداء اليها ، ومع ذلك لم تنطق بكلمة ما
ولم تحدث أحداً بما جرى ، وعادت إلى البيت في سكون ، ودخلت إلى
المطبخ ، وتناولت المكواة الحامية من النار ، ووضعتها على الجرح لتطهيره ،
واحتملت آلام الكى في صمت وشجاعة ، وعادت إلى مزاولة أعمالها المنزلية
وكان شيئاً لم يحدث ؛ ولم تعرف الأسرة بهذا الحادث إلا بعد زمن طويل .

وكما أورثها الزمن شدة على نفسها زادها أيضاً قوة وجبروتاً ، فكان
يكفى أن يلتصع الغضب في عينيها ، لينكمش الكل أمامها ، ويفقدوا القدرة
على النطق في حضرتها . ومن الحوادث الشهيرة ما حدث بينها وبين كلبها
المتوحش « كبير » : فقد اعتاد هذا الحيوان أن يتسلل إلى الحجرات ،
وينام فوق أسرة العائلة ، ولم يجرأ أحد على تأديبه ، إذ بلغت به الوحشية
أن يهجم فجأة على من يؤنبه ، وينشب أنيابه في عنقه ؛ ولم ترض إميلي
بهذا الحال ، فأعلنت أنها ستعاقبه عقاباً صارماً إذا عاود فعلته مرة أخرى .
وفي ذات مساء دخلت تابى حجرة النوم ، فوجدت كبير على الفراش ،
فخرجت تحمل الخبر إلى سيدتها وهي تجلس بين أختيها ؛ فأسود وجه إميلي
غضباً ، وتقلص فيها ، وتطاير الشرر من عينيها ، فأرجفت قلوبهن جميعاً ،
وارتعدت فرائصهن ، لأنهن يعرفن ما تستطيع أن تصنعه إميلي في مثل

هذه الحالات ، ومع ذلك لم تجرؤ واحدة منهم على التدخل أو الكلام . وصعدت إميلي في السلم ساكنة ، وعادت بعد قليل وهي تجر الكلب من طوقه ، وارتفعت زججته الوحشية . فلأت أرجاء المكان ؛ وعندما وصلت به الى الردهة ، جابهته في وحشية تفوق وحشيتيه ، وانتهالت بيديها عليه ضرباً ، حتى تورم وجهه ودمت عيناه . وأخذ الحيوان بالمفاجأة ، وهزمته قوتها الجارفة ، فانكمش أمامها ، وعوى ألماً وخذلاناً ، ورقد في ركن الردهة تسيل من جروحه الدماء ، وقد أوشك على فقد البصر . وعندما انفثا غضبها ، عادت اليه مرة أخرى ، وحملته بين ذراعيها إلى حجرتها ، وظلت طوال الليل ساهرة ، تعالج جروحه العدة بيديها ، وتضع الضمادات النظيفة على رأسه وعينييه ؛ ولم يحمل لها الكلب حقداً بعد ذلك ، بل تضاعف حبه وولائوه لها ، وظل على إخلاصه إلى النهاية ، ولما ماتت كان أول من تبع نعشها ، وعندما ووري جسدها في التراب ، عاد ليكيها أياماً أمام حجرتها الخالية .



في أواخر عام ١٨٤٥ وقع حادث جديد غير اتجاه حياة بنات برونقي الثلاث ، وإن قضى على البقية الباقية من علاقة الأختين : فقد لحظت تشارلوت أن إميلي تكتب كثيراً وتحرص على سرية ما تكتبه ؛ فتملكها حب الاستطلاع ، وقررت أن تقتحم عزلة اختها ، وتكشف عن سرها قوة واقتداراً ، واتهرزت فرصة خلو الحجرة يوماً ، فقامت إلى المائدة الصغيرة

وبحثت في درج اختها الخاص ، وأخرجت أوراقها السرية ، وانكبت على قراءتها جوار الموقد . وخفق قلبها ، وتقطعت أنفاسها ، فقد كانت الاوراق مليئة بقصائد رائعة بليغة ، تتفجر العاطفة من كل بيت وكل كلمة فيها ، ولم يكن الشعر من النوع الذي اعتادت تشارلوت أن تقرضه ، أو تقرأه لغيرها من النساء ، بل كان شيئاً جديداً عجيباً ، فيه قوة جارفة وفلسفة عميقة ، وروح حائم حزين .

وبينما هي غارقة في القراءة إذا بأميلي تعود الى الحجرة ، وتراها على هذا الحال ، فيثور غضبها ثورة شديدة ، وتنهال على أختها تأنيباً ، لسلبها أوراقها ، واغتصابها أسرار قلبها ، واخاديش نفسها . قالت تشارلوت في مقدمة ديوان اميلي الذي طبع بعد وفاتها .

« وانقضت ساعات طوال قبل أن أتمكن من إزالة غضبها من جراء وقوفي على مكنون سرها ، كما انقضت أيام عدة حتى استطعت أن اقنعها بضرورة نشر مثل هذه القصائد . كنت أعرف أن ذهنًا كذهنها لا يمكن أن يخلو من شعلة من المواهب النبيلة ، ولذلك رفضت أن أياس من إذكاء لهيب هذه الشعلة »

ودب النشاط في تشارلوت من جديد ، واشتعلت نيران آمالها الأدبية مرة اخرى ، وعادتها الرغبة في أن تبني وأختها مستقبلاً أدبياً أنيقاً ، فجمعت القصائد التي كتبها في سن الصبا ، وتبرعت أن بتقديم قصائد نظمها هي الأخرى سرّاً ، وانتقت من بينها مجموعة لكل منهن ،

واختارت أسماء مستعارة لها ولأختيها فاصبحت تشارلوت « كورر بل » ،
واميلي « إليس بل » وأن « آكتون بل » ، وكلها أسماء رجال كما نرى ،
لأنها كانت تعتقد أن القراء والنقاد لا يرحبون جدياً بشمرات ذهن امرأة .
وكانت الصعوبة الأولى هي إيجاد طابع وناشر للكتاب ، فطاف المؤلف
— عن طريق البريد — بمختلف دور الطباعة والنشر ، إلى أن استقر
أخيراً لدى أيلوت وجونز اللذين قبلوا المهمة على شريطة أن يدفع المؤلفون
الثلاثة نفقات الطبع ، وقبل كورر بل ، بالنيابة عن أخويه هذا الشرط ،
وظهر الكتاب فعلاً في شهر مايو عام ١٨٤٦ .

وبمجرد ظهور الكتاب أرسلت تشارلوت نسخاً منه هدية للجرائد
والمجلات الأدبية وجلست بعد ذلك هادئة في انتظار ثورة الإعجاب المتوقعة
ولكن الجمهور لم يضح إعجاباً ، ولم يتحدث النقاد بكلمة عنه ، وبيعت منه
نسختان فقط ! وعندما بدأت الآمال تنحط ثانية ؛ ظهرت مقالة في مجلة
« الأثنيوم » تنقد شعر الأخوة الثلاثة ، ونالت قصائد « إليس بل »
(أميلي) كل المديح والإطراء ، وقال الناقد إن لهذا الشاعر روحاً عجيباً
رقيقاً ، وأجنحة قوية سيحلق بفضلها عن قريب إلى سماء الشهرة والمجد ،
أما بقية الأشعار فليس فيها قوة أو جمال .

وكتبت تشارلوت بعد ذلك تقول :

... طبع الكتاب ، ومع ذلك لا يعرف أمره غير القليل ، وكل
ما يستحق الشهرة فيه قصائد إليس بل ... »

كشفت قصائد إميلي الجميلة ، وما لاقته من مديح وإطراء ، لتشارلوت عن حقيقة ذهن أختها ومواهبها ، وعرفت أن وراء القشرة الجامدة ، نبوغاً وعبقريّة ستسموان بصاحبتهما عن قريب إلى سماء الشهرة والمجد كما قال الناقد ؛ ولم تكن قد عرفت ذلك ، أو تنبّهت إليه من قبل ، فخبها لبرانويل أثناء الطفولة والصبا ، شغلها عن تأمل أختها ، أو الإحساس بوجودها . ومتاعبها النفسية في سن الشباب باعدت بين الأثنتين ؛ وتشارلوت كما نعلم أمة أسيرة للشهرة والنبوغ ، ولذلك سجدت في الحال أمام أختها ، وأحرقَتْ بحور الولاء والاحترام عند قدميها ، وامتلاً قلبها بحب جارف لها ؛ وأراد الله أن يأخذ هذا الحب طريق العذاب والآلام ، فلم تكن إميلي على استعداد لقبوله الآن ، ولذلك أثبت أن تمدّ يدها لأختها القاسية الأنانية ، ونفرت من عطفها ، وطوحت بقلبها بعيداً . وتحرك بين جنبيها ربيبها هيشكيليف ، فقد واثته الفرصة للانتقام ، وحن الوقت لأن يرد العدوان لأصحابه ، ويكيل لهم من المذلة أشكالاً وألواناً ؛ ولكن سلاح هيشكيليف غير سلاح إميلي ، فقد حارب البطل الأسود أعداءه بالمال ، أما هي فستحارب وتنتقم بسلاح أقوى وأشد ، وستتخذ من الحب الفجائي الذي طغى على قلب تشارلوت ، فجعلها طوع إشارتها ، وسيلة لتعذيبها وإذلالها .

حرصت تشارلوت كل الحرص على إخفاء حقيقة كورر وإليس وآ كتون بل

ولم يعلم أحد قط أن فتيات الأبراشية الثلاثة قرضن شعراً ، أو طبعن كتاباً ، وظل مستر بروتى معتكفاً بين كنيسته وحجرته ، وقد جهل تماماً المحاولة الأدبية التي قامت بها بناته ، وتوالت رسائل تشارلوت على صديقتها إلين ناسى وامتلات بكثير من سباب برانويل ، ولم تحو كلة واحدة عن الكتاب !

واقترنت الأخت الكبرى أن القريض لن يرفعهن إلى الشهرة التي تنوق إليها ، فقررت أن يجربن حظهن في النثر ، وصارحت أختيها بفكرتها وأمرتهما أن تسرعا بالإنكباب على كتابة القصة . وبدأت هى فى الحال قصة (الأستاذ) وإختلت إميلي بنفسها تكتب (مرتفعات وذرنج) ، بينما لمهمكت أن فى (أجنس جراى) ، ولكن واحدة من الثلاث لم تكن تعرف ما تكتبه أختها أو تستشيرهما فى شىء .

واقترعت الكتابة والتأليف على المساء ، لأن الأعمال المنزلية كانت تستغرق اليوم كله ، وعندما يهدأ البيت ، ويشمله السكون ؛ ويأوى مستر بروتى إلى فراشه ، وينصرف برانويل إلى حانة الثور الأسود وتغط تانى فى نومها ، إذ ذاك تهرع الفتيات الثلاث إلى أوراقهن وتعلق إميلي عل نفسها بحجرة النوم ، وتنكب آن على مائدة الطعام ، وتجلس تشارلوت جوار الموقد فى البهو . « وعند منتصف الليل يفتح الباب ، ويدخل برانويل مترنحا ، وتتعثر قدماه فى الممر الطويل ، ويتقدم من تشارلوت ؛ ويجلس بجوارها أمام النيران ، ولكنها لا تبادله كلمة واحدة ولا ترفع رأسها نحوه ، بل تبتعد فى اشمزاز ، وتسعل مرات عدة كأن رائحة الحمر المنبعثة من فمه تكاد تخنقها ،

وقد يجب أن يسألها عما تكتب ، ولكنه يسكت خشية أن تجيبه بكلمة جارحة ، ويشعر أن وجوده غير مرغوب فيه ، فيترك الحجرة على عجل ، ويصعد إلى إمبلي ويطرق بابها برفق ، ويدخل إليها ليتحدثا بضع كلمات « ويجد في أخته الرقيقة العطف الذي ينشده ، وتحدثه عن قصتها ، وتستشير في مجرى حوادثها ، فتزيله آثار قسوة تشارلوت ، ويحس مرة أخرى أنه مخلوق بشري ، فيذهب إلى فراشه هادئ النفس .

وفي ربيع عام ١٨٤٦ إنتهت الفتيات الثلاث من قصصهن ، وكتبت تشارلوت باسمها المستعار تعرض على الناشر مؤلفات الأخوة الثلاثة ، وبعثت إليه بالأصول ، فرحب بطبع مرتفعات وذرنج ، وأجنس جراى ، ولكنه رفض « الأستاذ » لأن القصة لم تعجبه !

وطبع كتابا إمبلي وأن في مجلد واحد ، وخرجا إلى السوق ولم يسترعيا نظر أحد من النقاد أو القراء ؛ وفي نوفمبر عام ١٨٤٦ ظهرت مقالة في مجلة « النورث أمريكان » تنقد مرتفعات وذرنج وتقول إن مؤلفها ليس بل « رجل نادر المواهب ، ولكنه عنيد متوحش حزين » ! وبعد هذا المقال بسنتين تنبه العالم الأدبي فجأة إلى عظمة هذه القصة ، وقوتها وجمالها ، فهلل لها النقاد وكبروا . ورفعوها إلى مستوى القصص الخالدة ؛ ولكن إمبلي كانت قد ماتت إذ ذاك ، فلم تتمتع بشيء من هذا المجد ، وتلك الشهرة .

مرتفعات وذرنج قصر كبير منيف يقف وحده بين البرارى الواسعة الممتدة ، ويقوم فوق رابية عالية تجعله هدفاً لضربات الرياح القاسية . وفى يوم من أيام الشتاء وقف مستر لوكوود أمام الدار الكبيرة ، يطرق الباب طلباً للحماية من العواصف والرياح ، فيفتح له خادم عجيب الأطوار ، ويدخله بعد مقابلة خشنة ، إلى أسرة لا تقل عن الخادم عجباً وخشونة . وتتساقط الثلوج فتحول دون عودة لوكوود إلى منزله ، ويضطر إلى قضاء الليل بين أناس لا يرغبون فيه ، ويمنحونه حجرة صغيرة ضيقة لينام فيها ، فيرى على جدران الحجرة كلمة (كاترين) وقد نقشت مرات عدة ، وفى كل مرة يتبع الاسم لقب مختلف ، فتارة كاترين إيرنشو ، وتارة أخرى كاترين لنتون ، ومرة ثالثة كاترين هيشكلييف . وينام لوكوود أخيراً ، فيرى حلمًا مفزعاً ، يستيقظ منه مرتاعاً ، لسمع خارج النافذة نقرأ كأن شخصاً يحاول عبثاً الدخول ، ويرى خلف الزجاج وجه فتاة صغيرة ، وتصل إلى أذنيه كلمات تقول :

— أدخلنى . . . أدخلنى . . . لقد مضى عشرون عاماً ، وأنا طريـدة
لا بيت لى . . .

ويشير الحلم فرع الغريب ، وتحرك الرؤيا حبه للاستطلاع ، فيعود فى الصباح إلى بيته ، ويستفسر عن تاريخ مرتفعات وذرنج من الخادم (نلى دين) التى ولدت وترعرت فى هذا المكان ؛ فتقص عليه أسطورة حب وحشى جنونى ، انتهى بهلاك صاحبه ودماره : فمئذ عشرين عاماً كانت كاترين الصغيرة تعيش فى القصر الكبير مع شقيقتها هندلى ، ووالدها الصارم ايرنشو . وعندما بلغت الفتاة السادسة من عمرها ، عاد الوالد يوماً من سفره ، وقد حمل معه صبياً أسود الشعر ممزق الثياب ، لا تعرف له أسرة ولا وطن ، وبعد فترة قصيرة تنشأ بين كاترين وهذا الصبي هيثكليف صداقة حارة قوية ، تزيد على مر الأيام ، فتصبح رابطة بين الطفلين لا تنفصم عراها . ويعطف السيد ايرنشو على ربيبه ، ويميزه عن ابنه هندلى ؛ ولكن هيثكليف لا يعترف بجميل ، ولا يرد عطف السيد بما يستحقه ، ويعيش فى الأسرة ، ليستنفد كل محبة ، ويستغل كل فرصة ، دون أن يدفع ما يقابل ذلك .

وتمر السنوات ، ويذهب هندلى إلى المدرسة ، ويموت ايرنشو العجوز ، فيعود الوريث من دراسته ، وقد جاءت معه زوجة جميلة الشكل فارغة العقل . وتداول دولة هيثكليف ، وينزل به هندلى أنواع المذلة والمهانة ، لينتقم منه على المحبة والرعاية التى تمتع بهما دونه خلال حياة والده ، ويحتمل هيثكليف الذلة والهوان ، وهو الفتى القوى المتكبر ، من أجل كاترين الجميلة

التي خلبت له على مر الزمن ، وملكت ناصية قلبه الأسود الحقود .
وفي خلال نزهة من النزعات الكثيرة التي يقوم بها الصديقان ، يصلان
في سيرهما إلى بيت آل لنتون الأثرياء ، فيتسلل الإثنان إلى الحديقة ، لينظرا
من خلال نافذة مفتوحة ، ويتفرجا على أطفال الأسرة وهم يلعبون . وينطلق
كلب كبير ، ويعقر ذراع كاترين المتطفلة ، ويقبل أهل البيت على صراخها ،
فيحملون الفتاة إلى الداخل ، ويطردون هيشكيلف ، ليعود وحيداً تحت
الثلوج المتساقطة .

ويسجل هذا الحادث بداية اهتمام كاترين بحيرانها الأغنياء ، ويزيد
تقديرهم في نفسها ، ويقوم صراع شديد في قلبها بين حبها الطاغى لهيشكيلف
وإعجابها الشديد بإدجار لنتون الأنيق ؛ وينتصر الإعجاب على الحب ،
فتشجع إدجار على حبها ، وتعهده بالزواج .

وتشتد بها الخيرة بعد هذا الموعد ، ويزداد فكرها بلبلة ، فتذهب إلى
الخدّام نلى دين — أختها في الرضاع — لتحدثها بالأمر ، تسألها النصيح
والإرشاد ، وتفسر دافعها لهذا الزواج : فهي لا تحب إدجار لنتون ، ولكنها
تريد أن تتزوج منه ، لتملك ناصية ثروته ومركزه الاجتماعي ، من أجل
مصلحتها ومصلحة هيشكيلف ، أليست هي وهيشكيلف شخصاً واحداً ؟
إنها تحس أنهما روح واحد قسم بين جسدين ، وتقول في حديثها :

— إنه نفسى وأكثر . ومهما كانت المادة التي صنعت منها روحانا ، فهي
مادة واحدة .

وما دامت روحهما واحدة ، فالألمهما أيضاً واحدة :

— إن آلامى العظيمة فى هذا العالم كانت أبداً آلام هيشكيلف .

ومع ذلك فهى لا تستطيع الزواج منه ، لأنه لقيط لا أسرة له ولا وطن ،
ولقد عاش فى البيت كخادم ، فإن اقترنت به بعد ذلك سيأطخها الزواج بالعار !

ويسمع هيشكيلف هذا الحديث ، فتتخطم كبرياؤه ، وينصرف فى
سكون ، ويهجر المقاطعة ، ويختفى فى الظلام الذى خرج منه ؛ وعندما
تعلم بذهابه ، تنور غاضبة ، وتبكي فى جنون ، ويتتابها اليأس ، فتسقط
فريسة مرض شديد ، تخرج منه وقد تغيرت أخلاقها تماماً ، وتبتعد عن
الناس ، وتقضى الأيام فى تعذيب من حولها ، ولا نخضع لغير رغباتها
الخاصة ، وعندما تملى عليها هذه الرغبات ان تتزوج من إدمار لنتون ،
تربط حياتها بحياته بلا إبطاء .

وبعد سنوات ثلاث من الزواج يظهر هيشكيلف فجأة ، ويعود إلى المكان
غنياً موسراً أنيقاً ، أما من أين أتى بهذا المال ، فلا يعرف أحد ، ويظل
السرخافياً إلى نهاية القصة . ويهبط البطل الأسود كما يهبط البلاء الكريه
لتصفية حسابه القديم مع هندلى إيرنشو الذى جرعه فيما مضى كؤوس
الذل والمهانة ، ثم ينتحر بعد ذلك ويضع حداً لحياته وشروبه . وتجن
كأثرين فرحاً بقدومه ، وتتلقاه بحماسة لا نهاية لها ، وتظل ترقبه طيلة الوقت
بعيون متلهفة ، كأنها استعادت بعودته ما فقدته من روحها القاسية .
ويقلب استقبالها مشروعاته رأساً على عقب ، فيترك فكرة الانتحار ويعيش

بعد ذلك ليجعل العالم ملك يديه ، وليقضى فى قسوة على كل من أساء له من أسرتى إيرنشو ولنتون .

وتحس كاترين أن الشيطان ركبها مرة أخرى ، فتسعى إلى تحريك زوجها وإثارتة ، لعله يصارع هيشكيليف وينتصر عليه ، فيكسب قلبها مرة أخرى ؛ ولم يكن إدجار من النوع الخشن الذى ترغب فيه ، فيدير ظهره لها ، ويأبى أن يقف مع هيشكيليف فى كفتى ميزان ؛ ويتملكها اليأس ، فتحاول الانتحار ، وتفتح النافذة ، وتعرض صدرها للموت الذى تحمله رياح البرارى فى الشتاء ، فتمرض وتموت بعد أن تنجب ابنة لإدجار ، وتقابل الموت فرحة وتذهب إلى القبر لتنتظر قدوم بطلها الأسود فى يوم من الأيام ، لينام القلبان جنباً إلى جنب ، سواء فى الجنة أو فى الجحيم .

ويقضى هيشكيليف — خلال مرضها — الليالى تحت نافذة حجرتها وييكبها بدمع هتون ، ويتسقط أخبار صحتها من الخدم ، فلما ينفذ السهم ويعلم بالنهاية ، يشور غضباً على خياتها التى دفعتها إلى هجره والزواج من إدجار لنتون ، فيلعنها لما سببت له من أحزان ، ويدعو السماء أن تعذب روحها فى الجحيم ، كما تعذب طوال حياته . ويكرر صلاة واحدة لا تتغير : — إننى أصلى صلاة واحدة ، سأعيدها حتى يحف لسانى : كاترين إيرنشو فلتحرى من الراحة ما دمت حياً .. كوفى معى دائماً فى أية صورة .. قودينى إلى الجنون إن شئت .

وتتحقق لعنة هيشكيليف ، وتظل روح كاترين هائمة ، ويتنازع شبحتها

مرتفعات وذرنج ، وتهيم على وجهها طريدة ، وهى تطرق النوافذ وتقول :
— دعنى أدخل دعنى أدخل . . . لقد مضت عشرون عاماً وأنا
طريدة . . . عشرون عاماً طوالاً .

وعلى مر الأعوام يتم انتقام هيشكليف ، ويبطش بأعدائه وكرهيه ،
وينزل الخراب والنكبات على كل من يحمل ذرة من دم لينتون أو إيرنشو ،
وعند ما يتحقق له النصر التام يجد أن العالم تراب زائف ، وأن الحياة فارغة
لايستطيع شئ أن ينعشها أو يملأها ، فيذبل ويذوى ، ويموت راضياً ليرقد
جوار من أحب ، بعد أن يوصى ويقول :

— لا أريد قساً يحضر ، ولا صلاة تقام على ، فلقد كدت أحصل على
جنتى ، أما جنة الآخرين فلا قيمة لها عندى ولا رغبة لى فيها .
ويدفن هيشكليف كما أوصى جوار روحه الثانية دون صلوات أو طقوس ،
و بموته تنقش الغيوم ، فيسعد الشباب الذين عذبهم ، وتزوج ابنة كاترين
من ابن هندلى إيرنشو .

وقصة مرتفعات وذرنج خشنة ، تسودها من البداية إلى النهاية روح
رهيب شرير ، ولكن هذا الروح نفسه هو الذى يملك لب القارئ ،
ويستحوذ على قلبه ، وينتزع منه الإعجاب انتزاعاً . ولقد سمت إميلي بروتى
فى وصف وتحليل شخصية هيشكليف إلى أعظم درجات السمو لأنها كانت
تصف شيئاً مألوفاً لها تصف ريبياً رعته بين جنبها سنوات طوال ، وغذته
بالآلام التى تذوقتها خلال وحدتها النفسية ، فغضباته وثوراته هى غضباتها

وثوراتها ؛ وانتقامه الرهيب هو الانتقام الذى كانت تتمنى لو تمكنها منه
الأقدار ؛ وسنرى فيما بعد أن إميلي انتقمت أيضاً ثم ماتت بعد أن تم انتقامها
وإن اختلف سلاحها عن سلاح ربيها هيشكيليف . والقسوة والخسونة
والشر التى تسود القصة هى سر عظمتها وجمالها ، ورمز عبقرية مؤلفتها ؛
ولكن تشارلوت رأت هذا الجمال عيباً ، وفى مقدمة الطبعة الثانية لمرتفعات
وذرنج — وهى الطبعة التى ظهرت بعد وفاة إميلي بقليل — كتبت تشارلوت
تعتذر عن هذا العيب للقراء ، وتساءل أمن الصواب أن يبيح المؤلف لنفسه
خلق شخصية كريمة مثل هيشكيليف ؟ وقالت عن تلك الشخصية التى تعتبر
تحفة نادرة فى عالم الأدب ، ومثلاً أعلى للحب الوحشى الفطرى .

— « ... وأسوأ ما فيه أن روحه الخبيثة تبدو وكأنها نفثت سمومها
خلال الكتاب ، فتحتل كل مرعى وكل وادٍ ، وتطل من بين أغصان كل
شجرة فى المرتفعات ... »

وكتبت إلى مستر وليامز تقول :

« ... إن لإليس بل ذهنًا فريداً ، يمتلئ على هدوئه بالقوة الغامضة ،
وعند ما ينظم شعراً تنساب روحه فى لغة بليغة مختصرة ، أما فى النثر فتبدو
تلك الروح فى مناظر تخيف القارئ وتصدمه أكثر مما تجذبه . سيتحسن
إليس حتماً لأنه يعرف أخطائه ... »

وعند ما ضج العالم بعد ذلك إعجاباً وتقديراً ، عرفت أن ما اعتذرت
عنه ، كان فى الواقع منبع العظمة وسر الجمال .

لم تكن تشارلوت بطبعها ممن تقعدهن الهزيمة ، فلم يضطرب قلبها ، ولم تنهن عزيمتها لرفض الناشرين كتابها «الأستاذ» ؛ وانكبت في الحال تؤلف قصة جديدة بهمة ونشاط ، وتجرب حظها مرة أخرى ، وبعد شهرين قلائل أتمت «جين إير» وأرسلتها إلى دار «سمت والدر» للنشر ، ويقال أن مستر وليامز - الناقد الأدبي للدار - عند ما قرأ الصفحات الأولى بهت ودهش لجمالها وعظمتها ، فظل طيلة الليل ساهراً على الأوراق ، ولم يتركها حتى انتهى منها في الصباح ! وتم الاتفاق سريعاً عن طريق البريد ، وأرسلت المسودات إلى السيد كورر بل في هاوارث ، فأصلحها وأعادها إلى الناشر بعد وقت قصير .

وفي اليوم السادس عشر من شهر أكتوبر عام ١٨٤٧ ظهر كتاب «جين إير» فأحدث ظهوره ضجة عظيمة في الأوساط الأدبية ، ونفذت الطبعة الأولى بعد ستة أسابيع ؛ وهتف الجمهور يطلب المزيد ، فطبع الكتاب مرة ثانية قبل مرور شهر واحد . وتساءل الناس عن حقيقة «كورر بل» الذي استطاع بقفزة واحدة أن يتزعم أدباء العصر ، ويضع اسمه بين الخُلَدين

فى عالم الأدب الانجليزى ؛ ولكن التساؤل لم يجدهم شيئاً ، وبقيت الحقيقة خافية ، وحرصت تشارلوت على إبقاء شخصيتها فى طى الكتمان .



و « چين اير » طفلة فقيرة يتيمة تعيش فى بيت خال ثرى ، ويشاء القدر أن يموت الخال ، ويتركها فريسة لقسوة زوجته وأولاده ، وتتفانى مسز ريد فى قسوتها ووحشيتها ، وتصب على رأس چين الصغيرة جام حقدھا ونقمھا ، وتحرمها اللذات التى يتمتع بها أولادھا ، فتعيش فى البيت طريدة شريدة ، لتسمع كل صباح ومساء ما يذكرھا بفقرھا وحاجتها ؛ وتضيق مسز ريد باليتيمة ذرعا ، فترسلھا إلى ملجأ « لوود » لتتعلم فيه .

ولم تكن الحياة فى لوود أطيب منها لدى مسز ريد ، فالبنت تعيش فى قحط دائم ، والطعام الذى يصرف للتلميذة لا يفى بحاجة طفل صغير ، والطاهية تسرق الخيرات ، وتلقى لهن بالفتات ؛ وفى كل صباح تفوح من المطبخ رائحة اللحم المتعفن ، وتملأ أرجاء المدرسة ، فترغب الفتيات عن الأكل ، ويقضين اليوم جوعا .

وتتعرف چين اير فى المدرسة على طالبة أخرى اسمها هيلين بيرنز ، فتربط بين الاثنين أواصر الصداقة . وهيلين فتاة وديعة هادئة تتقبل الحياة التى تعيش فيها بفلسفة عميقة رائعة ، ولذلك تحتمل صابرة ما تنزله بهما مس سكاتشارد — إحدى مدرسات الملجأ — من ألوان المذلة والمهانة ، وتنحط

صحتها تدريجاً ، وتقضى حى التيفوس المنتشرة بين الطالبات على ما تبقى من هيكلا العليل ، فتموت بين ذراعى صديقتها الصغيرة جين اير .
 وتم جين دراستها بنجاح ، فتعمل مدرسة فى الملجأ الذى تعلمت فيه ، وتنقطع صلتها تماما بمسز ريد ، وعلى مر الأعوام يتطرق إلى نفسها الملل ، وتشعر أنها حبيسة بين جدران عملها لا ترى شيئاً من الحياة المرحلة الخارجة فتبحث عن وظيفة أخرى ، وتجدها فى مربية لدى ثرى انجليزى اسمه ادوارد روشستر ، فتنتقل إلى قصره المنيف ، لتعلم طفلة غير الشرعية « أديل » .
 وجين اير قبيحة الشكل ، لها أنف كبير ، وجسم نحيل ، وفم مشوه الأسنان ؛ وهى تحس تماماً بهذا القبح ، فظالما أسمعها الناس رأيهم فيه ، ومع ذلك نرى أنها توشك أن تحب مخدمها الثرى الأنيق ، فتعود على نفسها باللامّة ، وتقول :

— جين اير ... اصغ إلى الحكم عليك : ضعى فى الغد مرآة أمامك وارسمى عليها صورتك بأمانة دون أن تخفى شيئاً من عيوب وجهك ... لا تتركى خطأ خشناً لا تحببه ، ولا تغفلى تشويها لا يرضيك ؛ واكتبى تحتها « صورة مربية فقيرة قبيحة الشكل » .

ولم يردعها تحقيرها لنفسها ، ويزداد حبها على مر الأيام ، فتزجر قلبها قائلة :

— ليس لك ما تفعلينه مع سيد « ثورنيلد » غير تسلم الراتب الذى يمنحك إياه أجراً على تعليم فتاته الصغيرة ، فلتحمدى الله على الاحترام

والكرم اللذين يعاملك بهما إذا أديت واجبك كاملاً ؛ وثق أن هذا هو
الرباط الوحيد الذى يجمعك به ، فلا تسبغى عليه حبك وشغفك وآلامك
وغيرتك ، لأنه ليس من مستواك ، وابق فى حدود طبقتك ، واحترمى
نفسك ، ولا تمنحى قلبك وروحك من يحتقر منحتك ويأبأها .

وروشتر رجل غامض ، أبقى على زوجته المجنونة ، وأسكنها حجرة فى
الطبة الثالثة من بيته الريفى ، وتركها فى رعاية خادم سكير ، وقد أخفى
أمرها تماماً ، فلم يعرف أحد من أمرها شيئاً حتى حين إير .

ويعجب السيد بمرية ابنته ، ويشجعها على حبه ، ويتفق معها على
الزواج ، على الرغم من ارتباطه بامرأة أخرى ، وعندما يقف معها أمام المذبح ،
يتدخل شقيق المجنونة ، وينزع الزواج . ولا يثنى الفشل روشستر عن عزمه
فيرض على حين أن تكون خليلته ، مادامت لا تستطيع أن تكون زوجته
ولكنها تأبى فى حزم ، وتهرب بعيداً عن موطن الإغراء ، وتهيم على وجهها
فى البلاد دون مال أو طعام ، وينتهى بها التجوال عند أسرة كريمة ،
تكشف فيما بعد صلة قرابتها بها . وتعرف أنها ورثت ثروة طائلة عن عم
غنى بعد أن أوصى لها ؛ فتقتسم الثروة مع أولاد عمومتها هؤلاء جزاء لهم على
إكرامهم لها وعطفهم عليها . ويعرض عليها ابن عمها جون ريفرز أن تتزوج
منه ، وأن تسافر معه للتبشير فى الهند ، وعندما توشك أن تقبل ، يخيل
إليها أن صوتاً يناديها ، ولكن من أين أتى هذا الصوت ، تقول :

— لم يكن فى الحجرة ، ولا فى البيت ، ولا فى الحديقة ؛ لم يأت من

الهواء ، أو من الأرض ، أو من السماء . لقد سمعته من قبل ، فأين ومتى ؟ ...
كان صوت رجل عرفته وأحببته ، صوت مازلت أذكره تماماً ، صوت
أدوارد روشستر ، وكان ينادى فى ألم شديد وحزن وحشى ، بل فى
إصرار وإلحاح .

وتمود جين مسرعة إلى الحبيب الذى يناديها ، وعندما تصل إلى ثورنفيلد
تعلم أن زوجته المجنونة قد أشعلت النيران فى القصر ، وألقت بنفسها من
فوق السطح فماتت ، وحاول روشستر أن ينقذها ، فعجز بعد أن ذهب
اللهيب بعينيه وحطم جدار متساقط ذراعه ؛ وتتزوج جين إير من حبيبها
الضريير ، وتعيش قاعة إلى جواره .



وتعتبر قصة « جين إير » وصفاً دقيقاً للفترة الأولى من حياة تشارلوت ،
فلمجاً لوود هو صورة صادقة لمدرسة روهيد بما حوته من فظائع ورذائل ،
وهيلين بيرز هي أختها ماريا التى قاست الكثير ، وماتت ضحية الوحشية فيها ؛
والحياة فى بيت روشستر ، وماتلاقية المربية من إهمال وما يعاملها الزائرون به
من احتقار ، كلها تجارب خاصة مرت عليها خلال عملها فى الأسرات .
ويقول بعض المؤرخين أن تشارلوت برونتى وصفت حالتها فى صورة مسز
ريد القاسية التى كانت تجلد الفتاة اليتيمة فى حجرتها الرهيبة .

وموضوع القصة - كما نرى - عجيب ، لعب الخيال فيه دوراً كبيراً ،
فامتلاً بمختلف المستحيلات ، ومع ذلك فعضمة الكتاب تسمو على

الترهات ، وحرارة العاطفة تأكل بنارها الأخطاء والمبالغات ؛ فلقد بلغت الذروة في وصف إحساسات المرأة نحو الرجل ، ورسمت تلك الإحساسات في صراحة وصدق ونقاء ، لم يعرف في تاريخ الأدب الإنجليزي من قبل . وكان العهد الفيكتوري الأول لا يعرف هذه الصراحة أو يستسيغها ، ويتمسك بأهداب التقاليد الأخلاقية في الكتابة ، ويفضل أن يظهر قلب المرأة في صورة محتشمة ، ولو كان هذا القلب لا يعرف الاحتشام ! فوضعت تشارلوت بكتابتها أسساً جديدة في الفن القصصى وبهرت القراء والنقاد بهذا اللون الصريح الجديد ، فأقبلوا على تصفحه بشغف ، ومع ذلك انتقدوه في الصحف انتقاداً لاذعاً مريراً ، واتهموا « كورر بل » بالخشونة والثورة على التقاليد الموضوعة . ولم يكن هدف تشارلوت — في الواقع — ثورة كالتى زعموها ، وكل ما في الأمر أنها تجاهلت تقاليد لا تحبها ولا تقرأها ، وسردت قصة امرأة فقيرة تعرف ما هو الحب ، وماهى أحزان القلب وآلامه ، ووضعت تلك الأمور كما تحس وتشعر بها ، فأخرجت إلى العالم درة خالدة في تاريخ الأدب الإنجليزي .

ولم تقبل تشارلوت — كعهدها — النقد في هدوء وترحاب ، بل ثارت غاضبة ، ونقمت على نقادها ، وكرهتهم طيلة حياتها ، وشهرت بهم ، واقتبست جملاً من مقالاتهم ، ووضعتها على السنة أبطال قصتها التالية « شيرلى » إيماناً في تحقيرهم والخط من شأنهم . وكتبت تقول عنهم في خطاب إلى مدرستها القديمة مس وولر :

« ... عرفت الآن أنهم أفراد تطفئ الحيوانية فيهم على العقل ... »

أشخاص خشنون بطبعهم ، شهوانيون في ميولهم ... »

وكتبت إلى مستر وليامز ناقد دار النشر تقول :

« ... لا بد من مجهود عظيم لتحطيمى ، فأنا أعرف أولاً نبل غرضى ،

وأحمل فى قلبى احتراماً شديداً للدين وثانياً أجد فى حكم من

شجعونى عضداً قوياً يشد أزرى ... »

وعندما طبقت شهرة الكتاب آفاق إنجلترا وأمريكا ، خضعت تشارلوت

لمشورة أختها ، وقررت أن تصارح والدها بأمر مؤلفها ، فدخلت إلى حجرته

ودارت بينهما المحادثة التالية :

— والدى ... لقد وضعت كتابا .

— أفعلت ذلك ، يا عزيزتى ؟

— نعم ، وأحب أن تقرأه .

— أخشى أن يجهد خطك الدقيق عيني .

— ولكنه مطبوع ، يا أبتاه .

— عزيزتى ! ألم تفكرى فى النفقات قبل الإقدام على عمل مثل هذا ؟

سيكسد الكتاب حتماً ، ولن تستطيعى بيع شىء منه ، فالناس يجهلونك ،

ولا أحد يعرف حتى اسمك .

— لن تكون هناك خسارة يا والدى ، وسيتغير رأيك إذا سمحت لى أن

أقرأ عليك بعض النقد الذى ظهر فى الجرائد والمجلات .

وعند ما عرف الوالد حقيقة النجاح الذى سجله كتاب ابنته ، خرج
من حجرة مكتبه ، وذهب إلى بناته وقال :
— أتعرفن يا بنات أن تشارلوت ألقت كتابا ، وإنه أفضل كثيرا مما
كان ينتظر !

إن النجاح العظيم الذى أحرزته بنات بروتى ، شجع تشارلوت وآن
على الاستمرار فى الكتابة ، فتعهدت الأولى أن تقدم لناشراها قصة جديدة ،
كما وعدت الثانية ناشرها بمثل ذلك . وكان كلا الناشرين يعتقد أن الأخوة
الثلاثة شخص واحد يكتب تحت أسماء مختلفة ، وبهذا العقيدة انفق
الإثنان مع دور النشر فى أمريكا على توريد المؤلفات الجديدة لصاحب
« جين إير » ، وتجت عن ذلك مشاكل عدة اضطرت معها تشارلوت
أن تكشف لدار « إيلوت وجونز » عن حقيقة شخصية الكتاب الثلاثة .

ورفضت أميلى رفضاً باتاً أن تزىح الستار عن نفسها ، وصممت أن تبقى
بالنسبة للجميع فى طى الكتمان ؛ فسافرت تشارلوت وآن إلى لندن ، وتركاهما
خلفهما فى هاوارث . وعرف الناشر لدهشته أن الأخوة بل ثلاث فتيات
ريفيات خجلات لم يسبق أن رأين لندن أوزرنها من قبل ، وفهم من
حديث الإثنتين أن الأخت الثالثة فى الأبراشية تنتظر .

واحتفى مستر وليامز بمن طالت مكاتباته لها دون معرفة سابقة ، ومجد
فى تشارلوت النبوغ والعبقرية ، فأقام حفلات عدة دعا إليها خيرة أدباء

العصر وشعرائه ، وقدمها إليهم باسم « مس براون » إجابة لرغبتها في إبقاء شخصيتها خافية على الجميع .

وطاف الخبير الأدبي معهما في أنحاء العاصمة ، وأراها الأكاديمي الملكية والكنائس والمتاحف ؛ وذهبتا في صحبته إلى الأوبرا بملابس قبيحة عتيقة الطراز لفتت أنظار الحاضرين ! وبعد بضعة أيام عادتا إلى هاوارث ، وقد انهكما الجهد الذي لم تعرفاه من قبل .

وفي دار الأبراشية أدركت تشارلوت أنها قد أخطأت بالكشف عن شخصية أختها الثالثة ، إذ ثارت إميلي غضباً على اقتحام عزلتها مرة بعد مرة ، ولا شك أن غضبها كان شديداً بدليل أن تشارلوت كتبت إلى مستر وليامز تقول :

« ... دعني أحذرك حتى لا تتكلم عن أختي عند ما تكتب إلى ... »
« فإليس بل » لن يحتمل إشارة إليه إلا باسمه الكتابي ، ولقد اقترفت خطأ كبيراً بالكشف عن حقيقته لك وللمستر سمث ؛ وفي الواقع لم أكن أقصد ذلك ، وكلمة نحن « أخوات ثلاث » — التي ذكرتها في حديثي معك خرجت عفواً من فمي دون أن أحس ، ولقد ندمت على نطقها إذ ذاك ، وما زلت نادمة إلى الآن ، لأنني وجدت أن غلطتي تتعارض وتتنافر مع كل رغبة أو شعور « لإليس بل ... »

خلال هذا العهد المفعم بالأمال والأمانى ، كانت مأساة أخرى تقع بين جدران بيت برونقى ، وتنمو على مر الأيام ، فتسجل بدء نهاية الكثيرين ؛ فقد ظل برانويل على عهده القديم يبكى حبيبته مسزرو بنسون ، ويقرأ لأصدقائه خطاباتهما الحارة ، ويغرق فى الكأس والأفيون آلامه وأحزانه . ولقصة رو بنسون حديث آخر غير الذى ذكره برانويل ، وأكده فى مناسبات كثيرة ؛ فقد كان الفتى شغوفاً بأدب كولورديج ودى كونسى ، وقرأ الكثير عن حياة الكاتنين ، فعرف أنهما أدمنا الخمر والأفيون خلال حياتهما الأدبية ، وأراد أن يتشبه بهما ، فأقبل على المنكرين بطيش حتى تمكننا منه ، فلم يستطع منهما خلاصاً .

وبتأثيرهما بدأت قواه العقلية تنذر بالخلل ، وخيل إليه أنه يحب زوج مخدومه التى تكبره بسبعة عشر عاماً ، وتصور أنها تبادل الحب ؛ ولما علم مستر رو بنسون بأمر الخمر والأفيون ، وطرده من العمل شر طردة ، عزا برانويل ذلك إلى غيرة الزوج من علاقة الاثنين !

ولم يكن برانويل يفعل هذا عن الخطاط خلقى ، بل لأن المخدر بدأ

يهز عقله ، ويسرع به إلى الجنون ، فكتب بيده خطابات عدة ونسبها إلى حبيته الموهومة ، وقرأها لأصدقائه ، ليثبت للجميع صدق روايته ، ويكشف لهم عن منبع أحزانه ومصائبه . وصدق الناس قصته ، وآمن آل بروتي بروايته ، فشجعه ذلك على التمداد والإمعان في الخيال ، وتمكنت هذه القصة من عقله المختل ، وتصورها حقيقة واقعة .

وأخذت تشارلوت الأمر بظاهره ، ولم تحاول التغلغل في نفس أخيها ، وكشف الحقيقة الواضحة ، والمأساة الكبيرة ، التي تختفي وراء الأكاذيب والترهات ، وزادت قطيعتها لمعبودها القديم ، وزادت خطاباتهما عنه شدة وقسوة . كتبت عام ١٨٤٦ إلى مس وولر تقول عنه :

« . . . لا يفكر في البحث عن عمل ، وأخشى أنه قد فسد فساداً لا يصاح معه شيء في الحياة ؛ وإذا توفر المال لديه أنفق في السوء والإضرار ، فقدرته على التحكم في نفسه قد أمست في حيز العدم . . . »

وكتبت بعد ذلك بشهور إلى إلين ناسي تقول :
« . . . هو باق في البيت ليعتصر كل مورد ، ويحول دون أية سعادة ممكنة . . . »

وأعماها الغضب والحقد عن حقيقة حالته الذهنية والجسدية : فقد بدأ الجنون يزيد وضوحاً في تصرفاته ، كما نشط السل يفتك بحياته ، ونحل جسده ، ومزق السعال صدره ، وغارت عيناه ، وذهب جماله الرائع الفريد ، فلم يشفع كل ذلك لديها ، ولم يرقق قلبها مثقال ذرة . وأحس برانويل

بانقلاب صديقة الطفولة ، وحز في قلبه إذ لاهلها له الآن بعد طول العبادة والتقديس .

وحدث ذات مرة أن مرضت طفلة يتيمة من رعايا الأبراشية ، وكان برانويل يعطف على هذه الطفلة ، فذهب لزيارتها ، ليخفف عنها قليلا ، وهي على فراش الموت ؛ وهنا تنمة القصة كما كتبها لصديقه مستر فيليبس :
« . . . ذهبت لرؤية الصغيرة المسكينة ، وجلست معها بعض الوقت ، وقرأت لها شيئا من الإنجيل ، وأنشدت أغنية طلبتها مني ، وشعرت برغبة شديدة في الصلاة معها ، ولكني لم أستطع ، فكيف أصلي من أجل روح أخرى ، وقد كدت أنسى الصلاة من أجل نفسي ؟ ! وعدت إلى البيت حزينا من أجل الطفلة المسكينة التي تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وجلست وحدي واجما متألما ، ولاحظت تشارلوت حزني واكتئابي ، وسألتنى عن السبب ، فلما أخبرتها به ، تأملتني من الرأس إلى القدم كما لو كنت وحشا ضاريا ، وتطلعت إلى بنظرة لن أنساها ماحيت . . . لن أنساها ولو عشت مائة عام ، وجرححت تلك النظرة قلبي ، وآلمتنى كثيرا . فأحسست كما لو أن إنسانا سددا لكمة شديدة إلى فمي . . ؟ »

وفي نهاية الخطاب يقول :

« وخرجت من البيت مسرعا ، وذهبت إلى حانة الثور الأسود ، وسجلت هذا الحادث يائسا حزينا ، لماذا لا يعطفون علي عندما يتحرك في نفسي شعور طيب ؟؟؟ ! ! »

ورأت إميلي هذا الجحيم فثارت عليه ، وتفانت في العطف على أخيها ،
لتعوض عليه قسوة الآخرين ، وكرست حياتها لخدمته . وازدادت ثورة
غضبها تأججاً عندما رأت أختها أن تكتب قصتها الجديدة « سكان
وندفل هول » التي يدور موضوعها حول مدمنى الحمر والأفيون ، والتي
يقوم برانويل فيها بدور البطل ، فتناقشت الأختان واختلفتا للمرة الأولى في
حياتهما ؛ وبذلت إميلي جهداً كبيراً في منعها من الاستمرار ، وراحت
تقنعها بأن قصة الأخ تستوجب العطف والإشفاق ، لا الكتابة والتشهير ؛
ولكن آن التقية أصمت أذنيها عن رجاء أختها ، وقررت أن تسجل
الحوادث لتكون عظة وعبرة للجاهير ؛ فانقطعت الصلة بين الأختين تماماً ،
ونبذتها إميلي كما نبذت تشارلوت من قبل ، ولم تبادلها كلمة حتى نهاية
حياتها .

واستمرت الحياة بالأخ الوحيد ، وتعاضلت نكبته على مر الأسابيع ،
ونبذه الصديق والحييب ، إلا إميلي الوفية المخلصة ؛ تقول مدام (داكلو) :
« ... كان هناك قلب امرأة واحدة ... قلب قوى في حبه ، فاحتمل
مصائب برانويل وخطاياها في الحياة ، وثابر على مساعدته والعطف عليه ؛
وفى كل ليلة عند ما يذهب بروتني إلى فراشه ، وتعكف تشارلوت في الطبقة
العليا ، تبقى إميلي ساهرة في انتظاره ، ولا يوقظها من تأملاتها الحزينة غير
خطواته المتعثرة ، وكلماته المتقطعة ، ويده المرتجفة على الباب ، فتنهض وتفتح
لهذا الحطام البشري ، وتقوده آمناً إلى فراشه ، ولم تفرغ شفقها أبداً ، ولم

يتملكها الملل يوماً . وفي البيت الصامت كانت إميلي الصامتة فقط هي التي تخفف عن برانويل بكلمات رقيقة شفيفة ، وهي الوحيدة التي ظلت إلى النهاية تذكر أنه أخوها ، فلا تدفعها الذكري إلى الخجل .. »

ويقال إن برانويل عاد ثملاً إلى البيت كالعادة ، وألقى بنفسه على الفراش ، فسقط المصباح ، واشتعلت حوله النيران ؛ فهجمت إميلي على الحجرة ، وأنقذت أخاها ، وحملته بين ذراعيها إلى حجرتها ، ثم عادت بالماء وأطفأت النيران ؛ بينما وقفت تشارلوت وآن جانباً تنظران في رعب واحتقار واثمناز .

وازدادت حالة برانويل الصحية انحطاطاً ، وفتك السل بصدره أبلغ الفتك ، ووضح جنونه للعيان ، ولكن كانت تنقابه فترات يستعيد فيها وعيه ، فيبكي على ما أصابه بدمع مدرار . وحان الوقت أخيراً لأن تتخلص تشارلوت من حملها الثقيل ، وفي اليوم الرابع والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٨٤٨ أفل نجم برانويل ، وأشرف على الموت ، وتنبه في اللحظة الأخيرة ؛ فنهض من فراشه ، وقرر أن يموت واقعاً على قدميه ، ما دام قد كبا في ميدان الحياة ، وظل منتصب القامة مهيب الطلعة بادی الشجاعة حتى لفظ أنفاسه الأخيرة ، فسقط ميتاً على الأرض ؛ ودفن في مقبرة الكنيسة جوار أمه وأخته وهو في الثلاثين من عمره فقط . ولم تحزن تشارلوت على وفاته ، وكتبت إلى صديقها مستر وليامز تقول :

« ... لقد دفننا ميتنا بعيداً عن الأنظار ، وعاد الهدوء بعد جلبة

الأسبوع الماضي ؛ وعلى كل حال فهو لم يدع لنا سبيلا إلى الحزن عليه ،
كما اعتاد الناس أن يحزنوا على موتاهم . وانتقال أخينا الوحيد إلى قبره
يعتبر نعمة أكثر منه نعمة ... »

وحديثه بتفاصيل دقائقه الأخيرة ، وكيف عقب على صلاة أبيه عليه
بكلمة آمين ، وقالت :

« ولم بدت هذه الكلمة عجيبة ، وهي تخرج من بين شفثيه لن
تتصور ذلك بالطبع ، لأنك لم تعرفه ! »

ثم فكرت أن تغفر له الآن ، وقد انجاب شبحه عن حياتها إلى الأبد ،
فكتبت إلى إلين تقول :

« ... لقد ذهبت خطاياك الآن ، ونحن نذكر آلامه فقط ... »

ولكن إميلي حزنت كثيراً على برانويل ، وبكته طويلاً بين جدران
حجرة نومها الصغيرة ، وانكبت على أوراقها سرّاً تنعاه بقصيدة مؤثرة تعتبر
من أجمل ما قرضته في حياتها :

« ما أقل الآن من يبكيك »

« من القلوب الكثيرة التي أحبتك ؛ »

« ولماذا يشور الليلة قلبي ، »

« بمثل هذا الشعور الحزين ؟ »

« طالما جلست وحيدة أتأمل ، »

« وأهيم بأفكار لا تراها العيون ، »
« فتعاودنى كلمة ، أو نعمة عابرة »
« من تاريخك الماضى العجيب . »

« وأراك أحياناً ناهضاً أمامى ، »
« صبيغاً موهوباً عظيماً من جديد ، »
« ومن عينيك تشع الفضائل ، »
« التى تتوج هام أشرف الرجال »

« شجاعة ، وصدق ، وصدر كريم »
« تنيره شمس نقية الضوء ؛ »
« شخص قدس وجوده وامتدح ، »
« مثل يوم رائع فى صيف جميل . »

« انتشر شراعتك فى الهواء جيلاً ، »
« وبدأت رحلة الجهد بكبرا ، »
« فكان صحوً نقياً طليقاً ، »
« طليعة عاصفة ألفت حياتك بعيداً . »

« ولهف نفسى كيف وثق الربان ، »
« وبني الآمال فوق زبد المحيط ، »
« وأسلم السفينة لتقودها الشهوات ، »
« وظنها ذاهبة إلى المرسى الأمين ؟ »

« فلقد كان يعرف حقا نذير الخطر ، »
« وتجمع الضباب يتبعه ظلام ، »
« وأى الصخور ، وأى الرمال ، وأى الحجر »
« يعوق الطريق لمرسى الوطن . »

« فضياء الشمس ، وصحو السماء ، »
« وجمال المحيط ، وصخب المياه ، »
« وقسوة الريح التى دفنته أماما ، »
« نذر ما صح أن تذهب هباء »

« ووقفت على الشاطئ أقرب فى قلق ، »
« زبد الموج يزداد ابيضاضا ، »
« فبكيت حظك وحدى كثيراً ، »
« لعجزى تماما عن الإنقاذ . »

« وما جدوى الكلام ، وقد انتهى كل شيء ، »

« ومع ذلك قلبي يظل حزيناً عليك ، »

« ولو أن الصديق والحبيب كليهما ، »

« قد نسيك ولم يبيكياك . »

عقب وفاة برانويل نشطت آن وتشارلوت تكتبان مرة أخرى ، فانتهت الأولى من « سكان وندفل هول » ، التي يقوم فيها الأخ التعس بدور البطل الفاسد السكير ؛ وطبعت القصة ، ولم تكن على شيء من الجمال الفني أو العمق ، ومع ذلك نفذت الطبعة الأولى في وقت قصير ، وتلتها طبعة ثانية قبل نهاية العام . أما تشارلوت فجعلت تبحث عن مادة لقصتها الثانية واستقر بها البحث على إميلي ، فانتوت أن تجعلها بطلة كتابها الجديد « شيرلى » ورأت أن تصف شخصيتها القوية الغامضة التي شغفت بحبها فجأة .

ولكن الأقدار كانت ترسم أموراً أخرى تهدد سعادة تشارلوت إلى الأبد ، وتندثر بمصاب جديد في بيت برونتي ؛ فقد خرجت إميلي يوم دفن أخوها وراء نعشه إلى القبر . وكانت المرة الأخيرة التي غادرت فيها جدران الدار ؛ إذ عادت ذلك اليوم مريضة تعباً إثر برد أصابها من الأمطار المتساقطة وانتابها سعال خشن حاد ازداد مع الأيام ، وقبل نهاية شهر أكتوبر أصبح من الواضح أنها تعاني السبل كأخيها .

وتبينت إميلي حقيقة مرضها قبل الجميع ، ورأت النهاية المحتومة التي
تنتظرها ، فلم تحزن ولم تيأس ، وسادت نفسها راحة عظيمة ، وقررت أن
تتقبل الموت بكل وسيلة ، فقد واثت هيثكليف الفرصة للانتقام ، فأنهزها
في الحال ، وأعد العدة لضربة حازمة تترك في نفوس أعدائه أثراً لا يزول .
واستسلمت المريضة للداء ، واشتد بها السعال ، ومع ذلك أثبت أن
تستشير طبيباً أو تتناول دواء ، وكلما سألتها تشارلوت عن صحتها نهرتها في
غضب وإذا تحدثت آن إليها ، تجاهلت حديثها كأنها لم تسمعه ؛ فنقد
أرادت أن تؤدب الأولى على طول قسوتها ، وتعاقب الثانية على قصة
سكان وندفل هول .

ورأت تشارلوت أختها المفضلة تذوى وتذبل ، وتتقدم من القبر في خطى
سريعة ، وهي عاجزة عن انقاذها ، أو مد يد المساعدة إليها ، أو التخفيف
عنها بكلمة رفيقة ، فثار حبها لإميلي ، وازداد وطفى وأصبح ناراً تحرق
قلبها ، وتتعس حياتها ؛ فسعت جهداً أن تقترب منها ، وتزيل الجفوة التي
تفرق بينهما ، فزادها السعي بعداً وامتزاقاً ، ففقت بالوقوف جانباً ، لترقب
الحوادث باكية ، ولا تقوى على الاقتراب .

واحتملت إميلي آلامها البليغة في قوة وجبروت ، وأثبت أن تهزم أمام
المرض ، وتمسكت بكل واجباتها المنزلية ، ولم تقعد عن واجب منها ، وقد
كانت كلها ملقاة على كاهلها . وفي كل صباح تستيقظ مع الفجر ، لتقوم
بكنس البيت ، وطهي الطعام ، وعجن الخبز ، فكتبت تشارلوت تقول :

« ... لم تتوان يوماً عن القيام بواجب ينتظرها ، وما زالت كذلك إلى الآن ؛ ولكنها تنهار سريعاً ، وتعجل الخطى نحو فراقنا . وكما رأيت القوة التي تجابه بها آلامها ، تفتت قلبي حزناً عليها ، وعجباً منها ، وحباً لها . لم أر مثل هذا من قبل ، بل لم أر شيئاً لها في الحياة ، فهي أقوى من رجل ، وأبسط من طفل ، ولها طبيعة فريدة ، لا يشاركها أحد فيها . وأقصى ما في الأمر أنها حين يمتلئ قلبها بالعطف على الآخرين ، لا تشفق على نفسها ، أو تترقق بها ؛ فالروح فيها لا تلين للجسد . وييدها المرتجفة ، وقدميها المتخاذلين ، ووجهها الضامر ، تقوم بواجباتها في اتقان كالذي عهدناه منها أيام الصحة الكاملة . وأن أقف جانباً وأشهد كل هذا دون القدرة على الاحتجاج ، لهو ألم أشد من أن تصفه الكلمات ... »

ويدل هذا الخطاب دون شك على أن انتقام هيشكيليف قد بدأ يسجل نتائج باهرة ، وأن إميلي استطاعت أن تعذب الأخت التي طالما عذبت الآخرين ، وأن تصرم في قلبها ناراً أشد مما عرفت طيلة حياتها ، حتى أيام حبها لمسيو هيجير . ووقف شبح برانويل ماثلاً بين الأختين ، يمد أحدهما بقوة ، فتزيد أحزان الأخرى وأتراحها ؛ ولم تكن تشارلوت تحمل ذرة من روح العطف على أخيها ، فأبت إميلي الآن أن تقبل شيئاً حرمه شقيقها المحبوب .

وأصرت إميلي أن تنام وحدها في حجرة خاصة ، لتموت وحدها ؛ وفي كل صباح تنهض على قدميها المتخاذلتين ، وتهبط السلم متقطعة الأنفاس ،

لتقوم بجميع الواجبات المنزلية ، وبلغ بها الضعف على مر الأيام أن عجزت
عن الهبوط إلا مستندة إلى جانب السلم ، وكل خطوة تخطوها تضطر بعدها
إلى الوقوف دقائق ، فتردد الجدران حشجة أنفاسها المتلاحقة ؛ وتقف
تشارلوت باكية ، ترى وتسمع كل هذا ولا تجرؤ على النطق بكلمة واحدة .
وعند ما تنتهى إمبلى من الهبوط تذهب إلى المطبخ وتباشر عملها ، وتبقى
حتى العاشرة مساءً ، إذ تجر قدميها ثانية إلى الطبقة العليا ، وتدخل حجرة
وتضع مصباحاً صغيراً فى نافذتها ، وتتأمل الثلوج المنتشرة فوق البرارى فى
انتظار رفرفة أجنحة ملك الموت وهو يقترب .

وصارعت الأخت الكبرى كثيراً من أجل أن تحطم الجدار القوى
الذى يفصل بينها وبين إمبلى ، فلم تستطع ؛ وفى كل محاولة تردّها المريضة
بقسوة وخشونة ، ومن أجل ذلك أصبحت حياة تشارلوت جحيماً ، وامتلأ
قلبها آلاماً سودت حياتها ، وأظلمت أيامها ، فكتبت إلى أصدقائها تشكو ،
قالت فى خطاب منها :

« . . . الله وحده يعلم ما ستنتهى إليه الأمور ، ولقد اضطرت أكثر
من مرة إلى الاعتقاد أن موتها أصبح محتملاً بل مؤكداً ، وإن كان طبيعى
تنفر من هذه الأفكار ، فإمبلى أقرب إنسان إلى قابى فى الحياة . . . »
وفى رسالة أخرى تقول :

« . . . لو أن إمبلى كانت فى صحة جيدة لما اهتممت بما يصيبنى من
إهانة وإهمال . . . »

وكتبت إلى مستر وليامز تقول :

« . . . إنها لا تقبل عطفاً ، ولا تسعى إليه ، ومن يحاول إسداء معونة إليها يسبب ضيقها وغضبها . . . إن علاقة الأخوة غريزة قوية ، وأعتقد أن قوة خاصة تنبعث من شخصيتها تزيدني قرباً منها وحباً لها ؛ ولكنها أنانية مني أن أشغلك بآلامنا العائلية ، فسامحني ، ولا تشر إلى هذا الحديث بكلمة في خطاباتك ، ولا تذكر اسم إميلي عندما تكتب إلي . . . »

وفي اليوم التاسع عشر من شهر ديسمبر عام ١٨٤٨ أي بعد ثلاثة أشهر من وفاة برانويل ، استيقظت إميلي في الصباح كعادتها ، وارتدت ملابسها بعد جهد ، وجلست أمام الموقد تمشط شعرها ، وكان الجو بارداً جداً ، والجليد يتساقط فوق المنازل والحقول ، فازدادت قوتها انهياراً . وجسدها ضعفاً ، وسقط المشط من يدها في النيران ، وعجزت عن الإنحناء للاتقاطه فتركته مكانه حتى دخلت تاني وأنقذته . وقبل أن تغادر إميلي حجرتها أطعمت كلبها (كير) وأطلقت صراح نسرهما الحبيس ، ونزلت إلى الطبقة السفلى ، وجلست على مقعد مريح ، تحاول التطيرز .

ولا حظت تشارلوت تغيراً واضحاً على وجهها ، فأحست أن نهاية أختها تقترب ، ولم تكن هناك فائدة من سؤالها أو التحدث إليها ، فقامت بمحاولة أخيرة لإظهار عطفها ومحبتها ، وخرجت إلى البراري ، لتبحث عن زهرة برية نادرة ، مما تشغف به إميلي . ولم يكن الشتاء موسم تلك الزهور ، ومع ذلك جعلت تبحث في كل ناحية ، لعلها تجد واحدة منها تختفي تحت

الصخور ، وبعد عناء عثرت على ضالتها المنشودة ، وعادت بها مسرعة إلى البيت ، ووضعتها في سكون أمام أختها .

ونظرت المريضة إلى الزهرة ، ثم حولت وجهها إلى الناحية الأخرى ، ولم تنطق بكلمة شكر ، أو تحاول لمسها ؛ فقد فهمت فحوى ما تريد تشارلوت بهذه الزهرة ، ولكنها لم تشأ أن تتقبل رمز المحبة والصدقة . وطغى اليأس على وجه تشارلوت ، فانسحبت حزينة متخاذلة ، وجلست من بعيد ترقب علائم الموت ، وهي تزيد وضوحا وجلاء كل لحظة .

وفي الساعة الثانية اغبر وجه إميلي فجأة ، وأحست بالنهاية تحل ، فتراخت إرادتها الحديدية ، ورفعت عينيها نحو تشارلوت للمرة الأولى ، وقالت بأنفاس متقطعة :

— لو أتى الطبيب الآن ، أعتقد أنني سأقابلة !

فأرسلوا في استدعاء الطبيب ، ووقفت تشارلوت وأن تبكيان ، وترجوانها أن تقوم إلى الفراش ، وتحاولان مساعدتها على النهوض ، ولكنها نحت أيديهما في غلظة ، وقالت :

— لا ... لا ...

وحاولت أن تقوم وحدها ، فتعثرت قدمها ، وسقطت على المقعد ميتة ، قبل أن يصل الطبيب ؛ وبذلك أسدل الستار على حياة حرة طليقة ، مليئة بالأحزان والآلام ، وبموتها اختفى إليس بل ، وخسر الأدب الإنجليزي شاعرة عبقرية ، وقصصية بارعة ، ستظل مؤلفاتها خالدة على مر الزمن .

ودفنت إميلي في مقبرة الكنيسة جوار أخيها المحبوب ، وهي في
التاسعة والعشرين ، وسار خلفها كلها كبير ، وظل طيلة اليوم يئن لدى
قبرها ، ثم عاد في المساء ، وقبع أمام باب حجرتها أياماً ، يعوى ويأبى أن
يتناول طعاماً أو شرباً .

وعند ما بحثت تشارلوت في أوراق أختها الراحلة ، وجدت أنها قبل
وفاتها بقليل نظمت قطعة شعرية ، تودع فيها الحياة ، وتقول في مطامعها :

« ما الجبن من عيوب قلبي ؛ »

« فما أرتجف مرة لزوابع الحياة ؛ »

« أرى مجد السماء يضيء أمامي ، »

« ونور الإيمان يكلؤني من الخوف . »

وتقول في نهايتها :

« فالأرض تفنى ، والناس تموت ، »

« وتخبو الشمس ، ويقف الكون ، »

« وتبقى وحدك يا إلهي ، »

« يتمثل فيك البقاء . »

« لا حول للموت ، ولا قوة له ، »

« فهل يستطيع أن يفنى ذرة ؟ »

« لا ، فأنت يا إلهي الوجود ، وأنت الحياة ، »

« وما تكونه أنت لن يناله فناء . »

وكتبت تشارلوت إلى إلين تقول :

« . . . لم تعد إيميلي تقاسى الآلام والضعف ، ولن ينالها منهما في هذه الحياة مزيداً . فلقد ذهبت بعد صراع قاس قصير ، وماتت يوم الثلاثاء الذى خططت لك فيه رسالتى السابقة . كنت أظن وقت كتابتها أنها ستبقى معنا أسابيع أخرى ، ولكنها انتقلت إلى عالم الخلود بعد ذلك بساعات . . . »

وبالأمس وضعنا فى سكون جسدها النحيل القانى تحت أرض الكنيسة . نحن الآن فى هدوء ولم لا نكون كذلك ؟ إن العذاب لرؤيتها تعانى الآلام قد انقضى ، ومشهد الموت قد ذهب ، والجنازة قد انتهت ؛ ونشعر أنها فى سلام ولا خوف عليها الآن من برد أو ريح شديدة ؛ فإيميلي لا تحس بهما اليوم . ولقد ماتت فى وقت كان الكل يعلق عليها آماله ، وانتزعت من الحياة فى زهرة العمر ؛ ولكنها بإرادة الله ، والمكان الذى ترقد فيه الآن خير من الذى تركته . . . »

بعد أن دفنت إيميلي ، واختفى شبحها من البيت نهائياً ، أقبلت تشارلوت على أوراقها مرة ثانية ، وعاودت الكتابة في (شيرلى) ، وقد انقطعت عنها في أثناء مرض أختها القصير ؛ وأفرطت في عملها لعله ينسيها بعض أحزانها ، ويبعد ذهنها عن التفكير في الحوادث الرهيبة الماضية ، وشاءت الأقدار أن تقفها عن الكتابة ، لتقرب مأساة جديدة تتكرر في البيت .

إذ لم يمض على وفاة إيميلي وقت قصير حتى توعكت صحة آن ، ولما فحص الطبيب عن حالها ، أعلن أنها هي الأخرى قد أصيبت بالسل ، وأن المرض يلعب في صدرها الآن دوراً خطيراً . ونزل الخبر كالصاعقة فوق رأس تشارلوت ، فقد كانت تأمل هدنة مع الأقدار ، فأبت عليها الدنيا هذه الهدنة ، وقدر عليها أن تعذب مرة بعد مرة وأن ترى عينها أختها المحبوبة تن تسلل بعيداً عن أنظارها . فكتبت في اليوم الرابع والعشرين من شهر مارس عام ١٨٤٩ تقول :

«... إن حالة آن الصحية في تأخر منتظم مستمر.... ولكن نفسها مستقرة وقلبها عامر بالمسيحية الحقة ، فليحمها الله ، ويساعدنا على احتمال

محنة هذا المرض المتباطيء المتلصق ؛ وليساعدها في ساعاتها الأخيرة عند ما يحين وقت الصراع الذى يفصل بين الروح والجسد . . . » .

ولكن المصاب الجديد لم ينسها إميلي ، وظل عقاب الميتة يلهمها بسياطه فكتبت إلى إلين تقول :

« . . . إن الشعور بفقدان إميلي لا يخف على مر الزمن ، بل يزيد كل يوم حدة ، ويجلب معه آلاما لا توصف ، ثم إن المستقبل مظلم . . . » .
وفي خطاب آخر تقول :

« . . . لا يمكن أن أنسى يوم وفاة إميلي ، فهذا اليوم يزداد وضوحا وسواداً ، ويرتسم فى ذهنى أكثر من ذى قبل . كان يوماً فظيلاً ، فيه انتزعت من حياة سعيدة وهى متنبهة مصارعة ، وإن كانت تعلم النهاية ؛ ولكن ماجدوى التفكير فى هذا الموضوع ؟ . . . » .

واختلفت آن عن إميلي فى مرضها كل الاختلاف ، فكانت هادئة وادعة ، تخضع للنصائح ، وتقابل الأطباء ، وتتقبل العطف ، وتعمل جاهدة على محاربة الداء ، والتغلب عليه ؛ ولكنها لا تخاف الموت أو ترهبه ، لأن تقواها الشديدة وأيمانها العظيم حياها من الخوف والرهبة .

كتبت آن إلى إلين صديقة أختها تقول :

« . . . لست أخشى الموت ، وباستطاعتى أن أخضع لسلطانته ، متى تيقنت أنه لا مفر منه ؛ وسأموت راضية لثقتى أنك ستمنحين تشارلوت كل رقة وصحة ممكنة ، وستكونين لها أختاً بدلاً منى ؛ ولكنى أتمنى أن

يكتب الله لى الشفاء ، لا من اجل والدى وتشارلوت فقط ، بل أيضاً لأننى
أنوق إلى عمل شىء طيب فى هذه الحياة قبل أن أغادرها ، فى ذهنى
مشروعات عدة أريد تنفيذها فى المستقبل . . . مشروعات متواضعة محدودة
ومع ذلك أحب ألا تذهب هباء ، فأكون قد عشت من أجل غرض صغير
كالذى قت به إلى الآن ، وعلى كل حال إرادة الله ستنفذ حتما . . . »

وأبدت آن رغبة فى السفر إلى سكاربورو لعل هواء الشاطئ ينعشها
ويقويها ، ومع أن حالتها الصحية كانت تنحط سريعا ، وارتسمت على
وجهها آيات الموت القريب ، فإن أختها لبثت رغبته ، وحجزت لها حجرة
فى فندق هناك ، وسافرت معها فى اليوم الخامس والعشرين من شهر مايو
عام ١٨٤٩ .

وبعد أيام ثلاثة من وصول الأختين ، استيقظت آن فى الصباح كعادتها
وارتدت ملابسها ، ومشطت شعرها ، وبعد قليل شعرت بانحطاط فجائى ،
وأحست أنها أشرفت على النهاية ، فأرسلوا فى استدعاء الطبيب ، وعند
ما حضر قابله فى هدوء وسكون ، وسألته كم بقى لها على قيد الحياة ،
وأصرت على معرفة الحقيقة ، لأنها لا تخشى الموت ؛ فلما أخبرها أن الموت
قد حضر ، شكرته على صراحته ، وبقيت على مقعدها ساكنة واجمة ،
ثم رفعت يديها مصلية ، وأوصت تشارلوت خيراً بوالدها ، وانتقلت إلى
الفرش تنتظر النهاية . وفاض الحزن بأختها ، فانهمرت دموعها ، وبكت
بجراحة ، ولكن آن راجعتها فى ذلك ، وقالت :

— تشجعى يا تشارلوت ... تشجعى

وفى الساعة الثامنة مساءً فاضت روحها فى سكون وهدوء ورضا . وماتت
بسكار بورو ، وهى تبلغ الثامنة والعشرين من عمرها ، ودفنت فى مقبرة
المدينة ؛ وبموتها اختفى نجم ثالث من سماء أسرة برونتى الموهوبة ، وانتهى
أمر آكتون بل ، مؤلف « أجنس جراى » وسكان « وندفل هول » .

عادت تشارلوت من سكار بورو بعد أن تركت رفات أختها الأخيرة
هناك ؛ وبين الجدران الحجرية افتقدت الوجوه الحلوة التى اعتادت أن
تراها حولها . وبمجرد وصولها ، دخلت إلى والدها ، وحدثته باختصار عن
تفاصيل المصاب ، ثم انسحبت إلى حجرتها وأغلقت عليها الباب . وبعد
أيام كتبت إلى إلين تقول :

« . . . رأيت الحجرات خالية ، والسكون يملأ البيت ، فتذكرت
أين يرقد الثلاثة الآن ، وفى أى حجر مظلم ينامون ، وعرفت أنهم قد
اختفوا من حياتى إلى الأبد ، ولن يظهروا ثانية على الأرض ؛ فتملكنى
شعور الوحدة والألم ، وعاودتنى الآلام التى لا مفر منها . والحنة الكبرى
تحل عند ما يهبط الظلام ، ويأتى الليل ، ففى مثل هذا الوقت اعتدنا أن
نجتمع فى حجرة الطعام ، ونحدث معاً ؛ أما الآن فأجلس وحيدة ، وأبقى
صامتة . لا أستطيع أن أكف لحظة واحدة عن التفكير فى أيامهم الأخيرة
وآلامهم العدة ، وماذا قالوا ، وماذا فعلوا ، وكيف بدؤوا فى رقدتهم الخالدة .. »
واشتدت بها الأحزان على مر الوقت ، وتنازعتها أشباح الثلاثة ، فحالت

دون الراحة والهدوء ، وأصبحت دقائق الساعة في البهو الخالي توجع قلبها ، فتكاد لفرط اليأس تفقد عقلها . وانحطت صحتها ، وزادت هزالا ، وفارقها النوم ، ولازمها السهاد ، واختلت أفعالها ، فساء الهضم وعذبها ولم تعد الحياة تسير بالسهولة التي عرفتها ، فموت الأختين وخصوصا إميلي ، ألقى على عاتقها تبعات كثيرة لم تعهدها من قبل ؛ وأصبح عليها أن تقوم بمختلف الواجبات المنزلية كالكنس والغسل والعجن والطهي ، ولا تجد من يعاونها غير تالبي العجوز ، ولكن تالبي سقطت ذات يوم فأصيب رأسها ، فكان على تشارلوت أن تقوم بكل شيء . وعند ما علمت بما أصاب الخادم إنهارت إرادتها فجأة ، وبكت كالجنونة دقائق عشر ، وإفادها البكاء ، وأزاح عن صدرها الكثير ، فنشطت للعمل ، وأنكرت على نفسها الضعف وقررت أن تثبت للحياة ، ولا تلين لمصائبها ، وتيقظت إرادتها الحديدية ، فكتبت تقول :

«... لن أتخطم ، ولن أدع الأحداث تسلبني المرونة والأمل والهدوء..»
ووجدت تشارلوت أن خير وسيلة للخلاص هي الكتابة ، فأقبلت على (شيرلي) مرة أخرى ؛ وفي كل ليلة تأوى إلى حجرتها ، بعد الانتهاء من واجباتها المنزلية ، وتظل منكبة على الأوراق حتى مطلع الفجر ؛ وكتبت إلى مستر وليامز تقول :

«... لقد استطاعت موهبة الخيال أن تنتشلني من العذاب الذي كنت أقاسيه منذ ثلاثة أشهر ، وممارستها أنقذتني من لجج الحياة ، وأبقت

رأسى فوق المياه إلى الآن ... وأحمد الله الذى منحنى هذه الموهبة ، وأعتقد
أن أعظم واجب على أن أستديم نعمة الخيال ، وأستفيد منها ... »

وهكذا انتصرت تشارلوت على ضعفها ، وخرجت من الحنة الأخيرة
أكثر قسوة ، وأعظم شدة مما كانت عليه ، ولم يعد ضعف الآخرين وأحزانهم
يجد إلى قلبها سبيلا ؛ فلقد عرفت أفتك انواع الألم ، فهان كل ألم عداها ،
ولأنها انتصرت على ضعفها ، تطلبت من الجميع مثل هذا النصر ، وغالت
في احتقار الضعف ، وامتهان الضعفاء ، ولم تجد في التضحية بالنفس متعة
أو سروراً ؛ وعاشت بعد ذلك لتتقرب الناس بعين ناقدة ، فتجاهل فضائلهم
وتسجل نقائصهم ، وتصفى في مؤلفاتها ، ليقراها العالم أجمع ، فيشاركها في
احتقارهم ، والزراية بهم .

وأتمت تشارلوت قصتها الثانية (شيرلى) فى نهاية شهر أغسطس عام
١٨٤٩ ، فأرسلتها إلى الناشر ، وطلبت رأى نقاده فيها ، فقرأها ثلاثة منهم ،
وأرسلوا إليها يقولون : إن شخصيات القساوسة الثلاثة تصبغها روح قوية
من المغالاة ، مما يبعدها عن الحقيقة ، ويجعلها أقرب إلى الصور
الكاريكاتورية . ولكنها أنكرت عليهم هذا القول ، وأصررت على عدم
تغيير شئ منها ، بحجة أنها شخصيات حقيقية ، نقلتها من الحياة حرفا
حرفا . والحقيقة أن تشارلوت كانت قد صبت على مساعدى والدها جام
غضبها فى هذا الكتاب ، وأنزلت بهم من الأهانات ما لا يحصى ، ولذلك

لم تشأ أن تغير شيئاً ، حتى لا تخف وطأة الوحول التي تريد أن تلتطخهم بها ، وشاءت أن يقرأوا القصة ، فيروا أنفسهم في هذه الصور الزرية .

ولكن أمراً واحداً كان يشغل بال تشارلوت ، ويدفعها إلى القلق ، وهو بقاء سرية جنسها واسمها الحقيقي ، ولذلك ألحت على الناشر أن يحفظ سر (كورر بل) ولا يبوح به لخلق ما ، لأنها تريد أن يحكم النقاد عليها وهم يعتقدونها رجلاً .

ولكن هذه السرية لم تكن ممكنة ، فلقد فضحت نفسها ؛ ووصفها الدقيق للأماكن والأشخاص أرشد الناس إليها ، فالقساوسة الثلاثة مثلاً عرفوا أنفسهم ، وكشفوا عن حقيقة اليراعة التي وصفتهم هكذا . ولم يغضبوا كما كان ينتظر ، ولم يحنقوا للإهانات ، بل تقبلوها بصدر رحب ، وضحكوا كثيراً ، وداعب بعضهم بعضاً بما جاء فيها ؛ ودهشت تشارلوت للنتيجة التي لم تكن تتوقعها ، ولكنها دفعت ثمناً غالياً لذلك ، فقد عرف أهل هاوارث حقيقة (كورر بل) ، وانتقلت الأقوال إلى لندن ، فلم يمض وقت طويل حتى عرف العالم أجمع من هي مؤلفة (جين إير) و (شيرلى) ؛ وأقبل الناس من كل البلاد ، ونزلوا بالقرية الصغيرة ، ليلقوا نظرة على الكاتبة العبقرية العظيمة .

ومع أن القساوسة الثلاثة ضربوا لها مثلاً أعلى في سعة الصدر وكرم الأخلاق ، إلا أنها لم تستفد من هذا الدرس ، ولم تقتبس منه شيئاً في حياتها ،

فأجبت من مدحها ، ورفعتهم إلى قمة الجحد والعظمة ؛ وهبطت بالنقاد الذين هجوها ، أو عابوا عليها بعض الأمور ، إلى هاوية التحقير والخذل . وعند ما ظهرت كلمة في (الديلي نيوز) وأخرى في (الوبزيرفر) ، وكانت كلتاها تمتدح شيرلي ، ثارت للمديح ثورة غاضبة ، وكالت لصاحبيها الشتائم والإهانات ، لأنهما أشارا إلى جنسها كمرأة ؛ وهي جريمة في نظرها لا تغتفر .

قد يكون من أصعب الأمور أن نحاول تلخيص قصة « شيرلى » ،
 فالكتاب فى الواقع ليس بقصة ، بل هو مجموعة شخصيات وضعت فى
 براعة ودقة ، وبلغ من روعة تحليلها ، ومهارة تصويرها أن ارتسمت أمام
 أذهاننا ، كأنها حية ترزق . وقد يكون أقرب إلى الدقة أن نقول : إن
 شيرلى مجموعة صور أخذت من الحياة ، دون أن يرتبط بعضها ببعض ، إنما
 تتوالى فى انتظام ، ليكشف لنا كل منها عن ناحية خاصة من نواحي الحياة
 الإنجليزية فى ذلك العهد . والكتاب لا يخلو من العيوب ، فالارتباط
 القصصى غير موجود ، والشخصيات تبرز فجأة دون مقدمات وتختفى كذلك
 فجأة دون تمهيد ، وكأن صاحبها جلست — ممسكة بالقلم — تقلب ذاكرتها
 وتصف الوجوه والشخصيات التى تعثر عليها بين طيات تلك الذاكرة .

ولم تصل شيرلى البتة إلى مستوى جين إير ، ولم تحتل فى عالم التأليف
 مكانة أختها السابقة ، وذلك لخلوها من العاطفة الصادقة الفياضة التى
 تستطيع بحاراتها أن تحرق كل العيوب ، وتعمى القارى — فى غمرة اللذة
 التى يعيش فيها — عن النقائص والأخطاء . ولست أقصد بذلك أنه

كتاب تافه ، بل هو مؤلف قيم له مكانته في الأدب الإنجليزي : فجال الوصف ، ودقة التحليل والعين الناقد التي تتغلغل في النفوس ، لترى ما تنطوى عليه من أحاسيس واتجاهات وشعور ، والقلم البليغ الذي يسجل تلك الأمور كمسورة دقيقة ، كلها فضائل سمت بشيرلى ، وجعلتها في مصاف خير المؤلفات .

والمفروض أن تشارلوت برونتي كتبت هذه القصة لتخليد ذكرى أختها المحبوبة ، والمفروض أيضاً أن شيرلى هي إميلي بالذات ؛ ولكنها بدأت الكتابة قبل الأحداث الرهيبة التي وقعت ويبدو أنها لم تكن تنوى إذ ذاك أن تضع أختها فيه ، ولذلك كتبت الثلث الأول تقريباً من غير أن تذكرها بكلمة ؛ وفجأة قطعت عليها الأحداث سلسلة أفكارها ومرضت الأخت وماتت ، ولحقت بها آن بعد قليل فعادت تشارلوت إلى الكتابة بعد أن خلا البيت من الوجوه المرحية التي ملأت ماضى حياتها بالحياة والنشاط ، ورأت في غمرة أحزانها أن إميلي خير بطلنة تضعها للقصة ولذلك تبرز شيرلى فجأة في الكتاب دون مقدمة أو تمهيد .

وتدور الحوادث حول الحياة في شمال إنجلترا ، عندما بدأت الآلات الحديثة تحل مكان الأيدي العاملة ، وما أحدثه ذلك الانقلاب في البلاد فقد أقبل أصحاب الطواحين الهوائية على استعمال الآلات تمشيًا مع روح العصر واقتصاداً في الوقت والنفقات فحرم آلاف العمال عملهم ، وانتشر الجوع وعم الفقر والعوز . وقاست الطبقات الفقيرة كثيراً ؛ مما أفعم النفوس حقداً

على الآلات و بعضاً لأصحاب الطواحين الذين أقبلوا على شرائها وقامت
حركات مقاومة شديدة ، وتعددت الاعتداءات فاختل الأمن في البلاد .
هذا هو الجو العام الذى يسود القصة من مبدئها إلى منتهاها أو الأفق
الواسع الذى ينحيم عليها . وعلى هذا الأفق رسمت تشارلوت بروتنى الشخصيات
التي مرت بحياتها ، في الفترة التالية لما ضمنته جين اير . وبدأت الكتابة
بالقساوسة الثلاثة الذين تناوبوا العمل لوالدها في الأبراشية ، ولقد كانت
تكره هؤلاء القساوسة ، وتحترقهم من أعماق قلبها ، فانهزت هذه الفرصة ،
لتنصب على رؤوسهم جام غضبها ونقمتها وترغهم في الوحول التي يستحقونها
في نظرها . ورسمتهم في صورة بشعة قبيحة : فملاهم أغبياء ، ضيقوا العقل
أقبلوا على الكهنوت سعياً وراء حياة رغيدة مريحة ، وقد تجردت نفوسهم
من الدين وروح المسيحية الحقة . وهم يقضون الليالي في معاقرة الخمر ،
والأكل النهم والضحك العالى المبتذل . ويقضون أيامهم في مغازلة الحسان
أما زيارة الفقراء — وهى واجب القس الأول — فيقومون بها مكرهين
ويؤدونها بقلوب مليئة بالكبر والعظمة والخيلاء . والجن نقيصة كبرى فيهم
ولذلك يرهبهم الخطر ويخيفهم عواء كلب صغير . وقصارى القول أنهم
سخفاء جهلاء من أصل وضيع !

وتناولت والدها أيضاً في الكتاب ، ووضعت تحت اسم مستر هليستون
وافه الأبراشية ، ولم ترحه هو الآخر . مما يدل على أنها لم تكن تحمل له حباً
حقيقياً : فمستر هليستون رجل قوى الشكيمة شديد المراس . ليس شيطاناً

ولا شريراً ، ولكنه « أخطأ في اختيار مهنته في الحياة ، وكان يجب أن يكون جندياً . فأبّت الظروف إلا أن تجعله قسيساً »

وكان هليستون في شبابه مغامراً ، واشتهر بجذب قلوب النساء حوله ، وكان يفضل منهن الذكية الجميلة . ومع ذلك لم يحاول أن يتزوج واحدة من التمتع الذي يعجبه واختار لحياته فتاة هادئة صامتة باردة لا تستجيب لبساته وتمهّداته ، غير أنه استطاع أن يتسلط عليها ، وذلك ما لم يظفر به أحد قبله من المعجبين الكثيرين ؛ فلما تقدم للزواج منها قبلته بلا تردد .

ولكن « الطبيعة لم تقصد أبداً أن تجعل مستر هليستون زوجاً طيباً لامرأة وديعة » ، لأنه لم يكن يفهم النساء ، أو يحاول فهمهن ، بل يأخذهن بظاهرهن ، ولا يتعمق وراء هذا الظاهر ، ليكشف عما يعتمل في القلب من أحاسيس وشعور « وما دامت المرأة صامتة في حضرتها فهي راضية ، وما دامت لا تشكو من شيء ، فليس لديها ما تشكو منه . »

ولم يلاحظ ضعف زوجته ، ولا انحطاطها الصحي السريع ، فلما ماتت واختفت فجأة عن ناظره ، حزن عليها ، ولكن لا يعلم أحد مدى هذا الحزن ، وربما كان أكثر مما ظهر على وجهه ، فهو ليس بالرجل الذي تستطيع الآلام أن تنتزع دموعه من عينيه . وعندما دفنت الزوجة انتشرت الأقاويل بين الجيرة ، وقال الناس إنها ماتت حزينة كسيرة القلب لفرط سوء المعاملة ، وهي أقوال مبالغ فيها لا تمت إلى الحقيقة بشيء .

وعاش مستر هليستون بعد ذلك ، ليرعى ابنة أخيه اليتيمة كارولين ،

ولكنه « لم يكن بطبعه أو بعبادته معداً لرعاية فتاة صغيرة ، ولم يهتم كثيراً بتعليمها ولولا رغبتها في العلم لظلت جاهلة ، وتحقيقاً لهذه الرغبة طلبت من قريبتها هورتنس مور أن تعلمها الفرنسية والفنون النسوية » .

وكان هليستون يكره الزواج ، ويحقد على البلهاء الذين يرتمون في أحضانهم والحوار الآتي بينه وبين كارولين يدل على اتجاهه هذا ؛ تقول له :

— عماه ... أراك كلما ذكرت الزواج تحدثت عنه باحتقار وكرهية ،

فهل تعتقد أنه يجب على الناس ألا يتزوجوا ؟

— من المؤكد أن الخطة الحكيمة تقضى بأن يظل المرء عزباً ،

ولا سيما المرأة .

— أكل زواج تعس شقي ؟

— ملايين منه هكذا ، ولو اعترف الناس بالحقيقة كاملة ، لكان

الزواج كله شقاء .

— أراك تتضايق كثيراً عندما تدعى لعقد زواج ، فلماذا ؟

— لأن الإنسان يجب ألا يساهم في تحقيق هذا الطيش المجسم .

— ولماذا يكون الزواج طيشاً مجسماً ؟ وإذا أحب اثنان أحدهما الآخر

فلماذا لا يقران العيش معاً ؟

— لأن كليهما سيميل الآخر بعد شهر واحد .

وهكذا تدلل تشارلوت على كراهية والدها للزواج ، ونفوره ممن يقدمون

عليه ، وسنرى فيما بعد أن أقوالها تتحقق يوم ترغب في الزواج من القس

نيكولز — أحد القساوسة الثلاثة ! — فيرفض مستر بروتى هذا الزواج رفضاً باتاً . وتعترف المؤلفة فى القصة بأنها لا تحب والدها ، وإن كانت تحترمه :

— لست شغوفة به ، ولأن أكون على مبعدة منه أفضل عندى من أن أكون فى حضرته .

وتنتقل تشارلوت بروتى من وصف والدها إلى وصف أختها إميلي التى وضعتها تحت اسم شيرلى . فشيرلى كيلدر واثرة غنية ، تهبط على البلدة وهى فى الحادية والعشرين من عمرها ، لتسلم زمام ممتلكاتها الواسعة ؛ وهى فتاة حسنة ، طويلة القامة ، أنيقة الحركات ، وعلى وجهها ترسم آيات الذكاء والقوة ، ومن عينيها تشع روحانية عجيبة ، فيها من الغموض ما لا يتيسر معه فهمها للوهلة الأولى . وشيرلى امرأة صموت لا تحب أن تكشف قلبها للناس ، أو تشكو لأحد ، وإن فاضت بها الهموم تحدثت بها « إلى الفأر الذى يتسلل من شقوق السقف ، أو العصفور الذى ينقر على نافذتها من أجل فتيات الخبز ، أو الكلب الذى يلحق يدها ، ويرقد جوار قدميها » .

وتجد شيرلى فى الطبيعة ما يشبع تعطشها إلى الوحدة والجمال : فالبرارى الشاسعة متحركة أو ساكنة ، والسماء الواسعة صافية أو غائمة ، كفيلة بأن تجعل لها الأرض جنة ؛ والحياة أغنية تتردد فى قلبها نغماتها . وبين أحضان الطبيعة تجرى فى عروقها دماء روح عجيب عميق ، لا يمكن

أن يصل إليه مخلوق دنيوى ، لأنه روح الله ، فيتملكها الخشوع والجلال ،
وتقف صامته تتأمل فى هدوء .

ومتلىء عينا شيرلى بالدعة والركة ، ولكن ثورة من الغضب تقلب تلك
العيون إلى جمرات من النيران المتقدة ؛ وتنهض كبرياؤها العظيمة ،
وتحول بينها وبين الإهانة « فتحت ثوبها الحريرى درع » من القوة
والعزة لا يستطيع أحد أن يخرقها .

ولقد نجحت تشارلوت برونتى فى رسم الصورة الظاهرة لإمبلى ،
وسجلت تفاصيل تلك الصورة مثل عدسة دقيقة ماهرة ، فوصفت
شكلها ، وسرورها ، وغضبها ، وجودها ، وتحفظها ، وحبها للبرارى ،
وتأملها الطويل لمظاهر الطبيعة ؛ ولكنها أخفت كل الاخفاق فى وصف
قلبها ، وحقيقة روحها . وطبيعى أن تخفق فى الكتاب ما دامت قد
أخفت فى تبين هذه الأمور فى الحياة ؛ وأحست الكاتبة بإخفاقها ،
فأكثر من ذكر الحوادث المشهورة عن إمبلى ، رغبة فى أن تغمر
القارئ بصورتها الظاهرة ، فتشغله عن قلبها وروحها ؛ وذكر مثل
أن شيرلى قابلت يوماً كلباً مريضاً ، وعندما اقتربت منه لتخفف عنه ،
عقرها فى ذراعها ، فلم تحدث إنساناً بالأمر ، ودخلت إلى المطبخ ،
وحرقت الجرح بالكواة الساخنة ، واحتمت عذاب الكى فى قوة
وصمت ؛ وهو حادث معروف عن إمبلى .

وفى حوار بين شيرلى ولويس مور عن حادث الكلب تسجل

تشارلوت احتجاجها الشديد على تحفظ إميلي ، ويقول لويس مور الذى يقوم فى هذا الحوار مقام المؤلفة :

— لمَ لمَ تخبرى أحداً ، أو تطلبى المساعدة والعلاج ، ما كان أجدر بك أن تلوذى بى ؟

— بل تقدمت من حجرة الدراسة (وهى حجرة مور) وهناك خانتنى الشجاعة ، ففضلت أن أخفى الأمر .

— لماذا ، وأنت تعرفين أن أقصى ما أطلبه من الحياة فرصة لخدمتك ؟

— ليس لى حق عليك .

— فطيع ! ألم تفعلى شيئاً قط ؟

— نعم سرت ترواً إلى حجرة الكى ، حيث يعملون طيلة الأسبوع ، وبينما كانت الخادم منهكة فى عملها ، إذ تناولت من النار مكواة إيطالية ، ولمست بطرفها الملتهب الدقيق ذراعى ، واحتملت الألم ، وطهرت الجرح الصغير ، ثم صعدت إلى الطبقة العليا .

— أعتقد أنك لم تتأوى مرة واحدة ؟

— لست أدرى كنت تعسة جداً ، ولم يكن لدى شىء من الهدوء .

— ولكن الهدوء كان كامناً فى شخصك . أذكر أننى أنصت طيلة

وقت الغداء لأسمعك تتحركين فى الحجرة التى فوقنا ، فلم تفعلى ، وكان كل شىء هادئاً .

— كنت أجلس إذ ذاك بجوار الفراش ، أتمنى لو أن فيوبى (الكلبة) لم تعقرنى .

— وحدك ! إنك تحبين العزلة .

— معذرة .

— إنك تحتقرين العطف .

— أنا يامستر مور ؟

— وذهنك القوى يشعرك بعدم الحاجة إلى المساعدة ، أو النصيحة ، أو الصحبة .

— فليكن ، إذا كان هذا يسرك !

وتبتسم وتعود إلى تطريزها ، فيتكلم لويس مور مرة ثانية :

— إذا لم يكن هذا هو التفسير ، فما هو إذن ؟

— لست أعرف .

— بل تعرفين ، ولكنك لا تريدين الكلام ، وكل شىء فى قلبك

لا سبيل إليه ، فهو موصد عليه .

— لأن ما فى قلبى لا يستحق أن يشترك أحد فيه .

— بل لأن أحداً لا يستطيع أن يقدم لك الثمن الباهظ الذى تتطلبينه

من أجل ثقتك . . . لا أحد يملك ما يكفي ثمناً لشراؤها ، لا أحد عنده

من الذكاء والشرف والحكمة ما تشدين في ناصحك ؛ وليس في كل
انجلترا ذراع تقبلين الاستناد اليه ، والنجدة به ؛ ولا صدر تضعين رأسك
فرقه . طبعاً يجب أن تعيش إذا وحيدة .

— أستطيع أن أعيش وحيدة إذا اقتضى الأمر ، وليست المشكلة
كيف أعيش وحيدة ، وإنما المشكلة كيف أموت وحيدة . . .

هذا الحديث - ولا شك - احتجاج شديد من تشارلوت على إميلي ،
وصرخة حارة مؤلمة على التحفظ القاتل الذي فرق بينهما طول الحياة ،
وحال دون أن تشارك أختها في آلامها وأتراحها وأفكارها ، خلال
الفترة الأخيرة الرهيبة .

وشيرلى كيلدر - أو إميلي - مرة متوحشة في نظر تشارلوت ، يخاف
الناس الاقتراب منها ؛ « والشخص الذي يستطيع أن يتقدم منها في جراحة ،
ويحني رأسها دون أن يحطها ، ويلهب عواطفها من غير أن ينال من
عزتها ، ويقف ثابتاً ، فلا يرتجف للنواب ، ولا تهزه الأحداث ؛ هو
الذي ينجح في ترويضها ، والربت على رأسها في أمن وسلام » .

ولكن المؤلثة تعود وتلتمس المعاذير لأختها ، فشيرلى لا تتحفظ احتقاراً
لعواطف الآخرين ، ولا تشتد رغبة في القسوة ، ولكنها تفعل ذلك لأنها
امرأة عطوف متكبرة ، وعطفها يدفعها إلى الشفاق على من تحب ، فلا تحذهم
بآلامها حتى لا تحزنهم وتشقيهم ؛ وكبرياؤها تحول دون أن تنزل بالشكوى
إلى من لا تقيم لهم وزناً . ويوم تنتصر على هذا العطف وتلك الكبرياء ،

وتفصح عما في قلبها ، تنساب عواطفها كالنعم السلس في هدوء ورقة وجمال
وعذوبة ، فتبدو على حقيقتها شخصاً فريداً نادراً ، « فقلبها مثل المذبح لأنه
مقدس ، ومثل الجليد لأنه نقي ، ومثل اللهب لأنه ساخن ، ومثل الموت
لأنه قوى » .

ولاشك أن تشارلوت قد تعبت كثيراً في كتابة « شيرلى » ، وظلت
تدرس وتفكر وتتأمل ، لتتمكن من تصوير إميلي كما يجب ؛ فما أفادها التعب
والإجهد شيئاً ، وظلت على جهلها بحقيقة أختها ، وإن نجحت في إتقان
شكلها الظاهري . فإميلي برونتي ليست نمرمة متوحشة ، ينالها الإنسان بالغلبة
والانتصار على قلبها وجودها وتحفظها ، وإنما هي فتاة وديعة ، شديدة
الحساسية ، تفهم الإنسانية على حقيقتها ، وتتطلبها ممن حولها ؛ ولا تريد من
الحياة إلا أن تترك وحيدة ، فلا يفتح أحد عليها عزلة تأملها واستقلالها .
أما الشدة الرهيبة التي ظهرت منها في فترتها الأخيرة ، فهي وليدة الحرمان
النفسي الذي كانت تعانيه طيلة حياتها ، مضافاً إليه أنانية أختها ، وماراته
في حالة برانويل من جمود وقسوة .

والفارق العظيم بين جين إير وشيرلى هو أن تشارلوت وصفت في الأولى
الحب بين المرأة والرجل كما هو ماثل في الحياة ، فارتفعت وسمت الى أوج
العظمة والخلود ، واحترقت الترهات والمبالغات في لهيب العاطفة الساذجة
القوية ؛ أما في شيرلى فقد نحت تشارلوت نحو الدعاية ، وحاولت أن تصف
الحب كما يجب أن يكون ، وجعلت تبشر له بطريقة خطائية أفقدت الكتاب

كثيراً من حرارة سابقه وحلاوته . تقول المؤلفة على لسان كارولين هيلستون :
— التهالك جريمة ، والجراة جريمة ، وكلاهما يدفع الى الاشمئزاز ؛ أما
الحب فإن أنقى الملائكة وأطهرهم لا يتخضب وجهه خجلاً من أجله ، وعند
ما أسمع أن رجلاً أو امرأة مزج الحب بالعار ، أعرف أن ذكرياتهما حقيرة
وأن عقليهما غليظان .

وتقول في مكان آخر على لسان شيرلى التى روضها لويس مورفا كتسب
قلبها ومحبتها :

— مستر مور إن قراراتك حكيمة ، وقلبك طيب ، ومبادئك قوية ،
وأعرف أنك عاقل ، وأشعر أنك كريم ، وأعتقد أن ضميرك حى ؛ فكن
زميلى فى الحياة ، ومعلمى فى جهلى ، ومرشدى حين أخطئ ، كن لى
صديقاً دائماً .

فأين هذه الجمل الخطائية من الأحاديث الصادقة الحارة بين جين اير
وحبيبها روشستر ؟

بعد ظهور « شيرلى » طبقت شهرة تشارلوت بروتى الآفاق ، وتحدث العالم أجمع عنها ، وانتقلت مؤلفاتها إلى الدنيا الجديدة ، وتدقق المال عليها ، فكانت تكتسب ألف جنيه فى العام ، وهو مبلغ عظيم فى ذلك العهد يماثل أضعافه الآن . وتضاءلت شخصية كورر بل التى اختفت وراءها طويلا ، وعرف الناس حقيقتها ، وسافروا من أنحاء البلاد قاصدين هاوارث ، ليروا موطن المؤلفة العظيمة ، فانقلبت القرية الصغيرة إلى ميدان صاحب يجمع أدباء البلاد وأشرفها ؛ وتجمعت الجماهير فى الكنيسة يوم الأحد ، ووقفت فى صفوف متوازية ، لتمر تشارلوت بينها ، وهى فى طريقها إلى الصلاة .

ودعاها ناشرها مستر سميث للسفر إلى لندن ، والإقامة فى ضيافة أمه العجوز ، فلبت الدعوة فى شهر ديسمبر عام ١٨٤٩ ؛ وهناك حفلت الدوائر الأدبية بمقدمها ، وبالغت فى تكريمها ، وتهافت الأدباء والشعراء على دعوتها والحفاوة بها ؛ وكان الكل على أتم استعداد لمصادقتها ، ونيل رضاها ؛ ولكن الشهرة جاءت متأخرة ، ولم تستطع تشارلوت أن تسير تيارها ، أو تتمتع بشئ منها : ففقدتها النفسية كانت قد تضاعفت فى ذلك الوقت ،

وإحساسها بقبحها ازداد وطنى على مر السنين ، وأصبح فكرة دائمة ثابتة ،
لا تستطيع منها خلاصاً ؛ فأساءت فهم كرم الناس ، وتهافتهم ، وعزت
إقبالهم عليها إلى الرغبة فى الوقوف على مدى قبح وجهها ، وكانت تعتقد عن
ثقة أن من ينظر إلى وجهها مرة ؛ يتألم أشد الألم ، فلا يعاود النظر ثانية إلى
الركن الذى تجلس فيه !

وأملى هذا الشعور عليها تصرفات غير مرضية ، فأمسكت يدها عن
أرادوا مصافحتها ، وأبت أن تؤمن بحسن نية من يحتفنون بها ، بل بادأتهم
بالعداء ، وجعلت ترقبهم بنظرات نافذة ساخرة ، وأجابت على مجاملاتهم
بكلمات خشنة جارحة ؛ وأحست بالقلق فى حضرة الناس ، ودفعها هذا
القلق إلى تصرفات عجيبة ، فتارة لا تجيب عن أسئلتهم ، وتارة لا تشاركهم
فى أحاديثهم ، وتارة تقهقه ضاحكة فيما لا تستدعى الضحك ! ودعيت مرة
لرؤية الممثل ماك ريدى الشهير ، فكتبت تقول :

« ... ودهش المدعوون عندما أعلنت أنه لم يعجبني ، فالعقيدة الحديثة
السائدة ، أن يحن الناس بجمال تمثيله ، مع أنه محروم من النبوغ ، ولم أر
مثيلاً لطريقته المصطنعة الثقيلة فى الإلقاء والحديث . وكان المسرح والتمثيل
سخافة ما بعدها سخافة . . . إنهم لا يفهمون شيئاً عن التراجيديات أو
شيكسبير ، ولذلك يفشلون دائماً فى التمثيل . قلت هذا بصراحة ، فأحدث
كلاى جوداً وصمتاً عميقاً ؛ ولقد اضطرت إلى المعارضة فى كثير من
المناسبات ، فجرت شعور الناس بهذه المعارضة ؛ ويبدو أن العرف المتبع الآن

هو الإعجاب بالشعر الضعيف الغامض المعقد التافه ، مثل ما تكتبه اليزابث باريت براوننج ، ولقد عرضوا على قطعاً ظنوا أن كورر بل سيعجب بها ، فلما لم يفعل غضبوا وتضايقوا . لا أظن أنتى أحب الحياة فى لندن ، وإذا اضطرت يوماً لذلك ، فسأتجنب الاختلاط بالناس ، وبخاصة الطوائف الأدبية ... »

هكذا كانت حياتها فى العاصمة سلسلة من بلبلة الفكر ، وغلظة الطبع ، وقلة الذوق ؛ فأدبر الناس عنها بعد إقبال ، وتجنبوا لقاءها من أجل ملحوظاتها القاسية ، وفروا من صحبتها هرباً من نظراتها الساخرة الناقدة . وكانت تشارلوت تقدس ثاكارى الأديب العظيم ، وترفعه إلى مصاف الآلهة ، فدعاه مستر سميث لتناول الغداء معها ، ولما حضر تغلب الحياء عليها ، ولم تبادلها أولاً كلمة واحدة ، ثم اندفعت فجأة فى حديث جارح له ، وأحدثت تلك المقابلة بينهما جفوة ، وأحست تماماً بوطأتها ، فلم تشأ الاعتراف بأن خجلها وشذوذها هما السبب ، وحملته وحده تبعات ذلك ، وعزت الجفوة إلى نقص فى شخصيته ، وشذوذ فى أخلاقه ، وتضائل شبجه الجبار فى ذهنها ، وتضائل معه تقديرها لكتبه ومؤلفاته العظيمة . كتبت تقول عن تلك المقابلة :

« ... وأخيراً إن لم يكن آخرًا قابلت مستر ثاكارى ، حين حضر لزيارتى ذات صباح ، وجلس معى أكثر من ساعتين ، ولم يكن معنا غير مستر سميث : ولقد سبق أن قلت إن المقابلة كانت عجيبة ، وفى الواقع كانت

كذلك ، إذ جلس العملاق أمامي ، ودفعني إلى التحدث معه عن أعماله الأدبية ، و فجأة تواردت على ذهني أخطاؤه واحدة إثر واحدة ، فواجهته بها ، وصارحته بأمرها ، وطلبت منه إيضاحاً لها أو تفسيراً ؛ ودافع عن نفسه كما يدافع تركي كافر ، أى أن أعذاره كانت غالباً أقبح من أخطائه ... »

وعادت تشارلوت إلى هاوارث غير آسفة وغير مأسوف عليها ، وحوثها جدران الأبراشية من جديد فتنازعها أشباح الماضي العزيزة ، وزادت وحشة الوحدة عليها ، ولم تعد تجد لذة أو عوضاً عن فارقوها ، في صحبة والدها العجوز الذي أقبل أخيراً على الحجر ! وفي ذلك العهد أراد الناشر إعادة طبع مرتفعات وذرنج وأجنس جراي .

وطلب منها أن تكتب المقدمة ، فخطت قطعة مؤثرة أشد التأثير ، تصف فيها أيام إميلي الأخيرة ، وتنقد مرتفعات وذرنج ، وتعتذر إلى القراء — كما ذكرنا سابقاً — عن الروح الشرير الذي يسود القصة من مبدئها إلى منتهاها ، وعن الظلام الذي يظلل كل صفحة من صفحات الكتاب . ودافعت بحماسة عن مواطن الحسن في نظرها ، وامتدحت الشخصيات النافهة في الكتاب مثل شخصية نلي دين وإدجار لتتون ، وقالت إن إميلي التي استطاعت خلق هاتين الشخصيتين — لو امتد بها العمر — لتجلبت للناس مواهبها ، وتحسن تصويرها للشخصيات النبيلة ، ورسمت الكثير منها في دقة وإتقان .

وهذه المقدمة تثبت أن تشارلوت لم تفهم مرتفعات وذرنج ، فالحب
الوحشى الذى يتمثل فى هيشكيلف ، والروح الشرير الذى يسود القصة ،
والحلك الذى يجلل سواده كل صفحة من الصفحات ، كل أولئك سر جمال
الكتاب وعظمته ، ولو أن إمبلى حاولت أن تكتب غير هذا اللون ، لما
عرف نبوغها ، ولذهبت عبقريتها أدراج الرياح .

واقضى عمل تشارلوت تقليب أوراق أختها من جديد ، لاختيار قطع
شعرية لم يسبق نشرها ، فأعاد هذا العمل إلى ذهنها الكثير من الذكريات
المؤلمة ، وكتبت تقول :

« ... لقد جددت قراءة الأوراق الذكريات ، وجلبت معها الحزن
الكثير ، وامتلاّت نفسى انقباضاً لا يحتمل ، وخيل إلى ، بعد ليلة أو ليلتين ،
أننى لن أستطيع احتمال ذلك الانقباض حتى مطلع الفجر . ولكن عندما
يتنفس الصباح تتنازعنى الآلام مرة أخرى » .

واشتدت بها الذكريات . فكرهت البقاء فى هاوارث . وتعدد سفرها
بعيداً عنها . وقامت بزيارات عدة فى لندن وغيرها . ونزلت ضيفة على
صديقتها الجديدة مس مارتينو الكاتبة المعروفة . وكانت تشارلوت على غير
عادتها تحب هذه السيدة . وتقدر فيها العبقرية والنبوغ . وتصفها بالعظمة
وطيبة القلب . كتبت إلى والدها تقول عنها :

« ... إنها تعطف كثيراً على . ولو أننى تافهة القيمة إذا قورنت بها » .
وكتبت إلى مستر وليامز تقول :

«... لا يسيئنى قط أن أحس إلى جوارها بالضالة الذهنية
والمعنوية...»

وكان السرفى هذا الحب الشديد ، والتقدير العظيم ، ما أظهرته مس
مارتينو من الإعجاب بيمين إيروشيرلى ، ففتح هذا الإعجاب الطريق واسعا
إلى قلب مؤلفة القصتين .

ولم تكن حياة الخمول ترضى تشارلوت ، أو تلائم نشاطها ذهنى ،
فأقبلت على التأليف مرة أخرى ، وبدأت قصتها الثالثة « فيليت » فى
يوليو عام ١٨٥١ .

وتتناول هذه القصة الفترة الثالثة من حياتها ، وهى التى تلى ما وصفته
فى شيرلى ، وتدور حول حوادث بروكسل ومسيو هيجير ! وفى بادىء الأمر
تقدمت بالقصة بسرعة ، وانساب العمل بين يديها ، لأنها كانت تسجل
فترة تركت وراءها ذكريات لا تنسى ؛ وقبعت بين جدران هاوارث تكتب
فى نشاط ، ورفضت الدعوات ، وأصررت على البقاء وحيدة لإتمام الكتاب
وحل الشتاء يبرده وأمطاره ، فتخاذلت قواها ، وانحطت صحتها ،
وأصابها صداع لا يبرح رأسها ، وعاودتها نوبات أمعائها السابقة ، وهجرها
الوحى ، فتركت المسودات ، ولازمت الفراش أسابيع متعاقبة ؛ وعندما
شفيت كان أول عمل قامت به أن سافرت إلى سكار بورو ، لتزى الضريح
الذى أوصت بتشيدته فوق قبر آن ، وظلت هناك فترة من الزمن ، عادت
بعدها إلى هاوارث وقد استعادت نشاطها المفقود ، فانكبت فوق أوراقها
من جديد .

وفي أواخر شهر نوفمبر عام ١٨٥٢ أتمت تشارلوت كتابها الجديد ، وأرسلت « فيليت » إلى الناشر تطلب رأيه ، فأبدى لها ملاحظاته ، ولكنها أثبت أن تأخذ بها ، أو تغير منها كلمة واحدة ! ولقد أحسنت تشارلوت صنعاً بعنتها ، لأن دقائق الكتاب تدور حول فترة خاصة ، هي أدرى الناس بحقيقة ما تضارب فيها من أحاسيس وشعور ، وقد وضعت تلك الأشياء كما كانت تحس بها تماماً ، فخرجت القصة فريدة في عبقريتها وجمالها ، وسمت بكثير عن شيرلى ، وكادت تصل إلى مستوى جين إير .

وظهر الكتاب فعلاً دون تغيير في شهر يناير عام ١٨٥٣ ، وما تم طبعه حتى أرسلت تشارلوت نسخة منه إلى صديقتها الحميمية مس مارتينو ، وأرفقتها بخطاب تطلب فيه تقديها ، وتناشدها الصراحة التامة مهما بلغت تلك الصراحة من قسوة . وتقول :

« . . . أعرف أنك ستبدين رأيك في صراحة ، كما لو كنت تحدثين أختاً عزيزة تفضلين صالحها على المجاملة . إنني أرتجف خوفاً من النقد كأى مخلوق ضعيف من دم ولحم ، ولكنى أجل الحقيقة ، وأنحنى أمامها بخشوع فدعها تلطمنى على خدى . ولو انفجرت لذلك الدموع من عيني . وسأتذرع بالشجاعة ، وأدير لها الناحية الأخرى من وجهى ، لتتألى اللطمة الثانية ، فاضربى في جراءة وأمان . . . »

وإجابة لهذا الرجاء الحار ، أبدت مس مارتينو لصديقتها رأيها الصريح في فيليت ، ولم يكن الرأى مديحاً على طول الخط ، بل أخذت على القصة

بعض مآخذ ، وكتبت في (الديلى نيوز) تقول إن حب البطلة لأستاذها بول إمانويل يحدث فجأة دون تمهيد بعد حبها للدكتور جون ، وعابت على كورر بل حملته القاسية على البابوية والكنيسة الكاثوليكية .

ومع أن تشارلوت هى التى طلبت النقد ، فإنها ثارت غضباً له ، ولم تدر وجهها الى الناحية الأخرى لتتقبل راضية اللطمة الثانية ، بل رفعت راية العذاء من فورها ؛ ودافعت بشدة عن وجهات نظرها ، وقاطعت صديقتها القديمة نهائياً ، وأرسلت إليها خطاباً تقول فيه : « إن الهوة العميقة التى تفصل بين آرائهما ومبادئهما أوسع بكثير من أن تسمح بالصدقة » ! وهكذا انتهت الصلة الحارة التى كانت تربط بين الكاتبتين ، ولم تر إحداهما الأخرى بعد ذلك .



على الرغم من تعدد النقد ، وشدته فى بعض الأحيان ، اعترف الناس جميعاً بعظمة فيليت ، وسموها كثيراً عن سابقها شيرلى ؛ ونجحت تشارلوت برونى فى كتابها كل النجاح ، لأنها كانت تترجم عن نفسها ، وبوحى من قلبها . وفى هذه القصة رسمت الكاتبة حياتها ، ومن عاشوا حولها فى دقة تامة ، ولم تعتمد الى الخيال ، وسردت الحوادث التى وقعت لها سرداً دقيقاً متسلسلاً ، ساعد المؤرخين بعد وفاتها على استكشاف كل دقيقة من دقائق أسرارها الخاصة . ولم تكن تشارلوت تقصد بمؤلفاتها الثلاثة أن تطلع الناس على قلبها وما يطويه ، بل كانت تظن أنها قد خدعت العالم أجمع بالأسماء المستعارة التى وضعتها للأماكن والأفراد ؛ وسرد الحوادث بتلك الدقة هو سر عبقريتها .

تتلخص قصة (فيليت) في أن فتاة يتيمة اسمها لوسى سنو تقلب لها الحياة ظهر الحزن ، فتضطر إلى العمل لاكتساب رزقها ، وتعمل لسيدة عجوز ، تموت قبل أن توصى لها بالمال الذي وعدتها به . وتهيم لوسى على وجهها ، وتهجر إنجلترا ، وتستقل باخرة إلى بلجيكا ، وعلى ظهر تلك الباخرة تقابل فتاة خليعة هي جينثرا فانشو ، وتنصحها تلك الفتاة بالذهاب إلى مدرسة مدام بك في مدينة فيليت .

وتهبط لوسى وحدها على وطن غريب ، وتفقد حقيقتها بما فيها من نقود وملابس ، ولا يتبقى معها إلا ما يوصلها بصعوبة إلى المدينة المشوذة ، فتسافر إليها دون تردد ؛ وتصل في المساء إلى فيليت ، وتهيم في الطرقات حتى تلتقي بها المقادير أمام باب مدام بك ، فتدخل من فورها ، وتعرض أمرها على السيدة ، وتناشدها أي عمل ترتزق منه . وتستدعى مدام بك ابن عمها الأستاذ پول امانبول ، وتطلب نصحه وإرشاده ، فيتأمل وجه اليتيمة قليلا ، ويظهر رضاه ، وتعمل لوسى سنو منذ ذلك الوقت مربية لبنات مدام بك . وتحتاج صاحبة المدرسة إلى مدرسة للغة الإنجليزية ، فترتقى لوسى من تربية الأطفال إلى تعليم الفتيات الأنيقات الثريات .

وتمر الأيام بطيئة ثقيلة ، وتحل العطلة المدرسية ، فتتصرف التلميذات والمدرسات إلى بيوتهن ، وتبقى لوسى وحيدة بين جذران المدرسة ، لا صديق لها ولا أنيس ، وتلعب الوحدة بأعصابها ، فيزيالها النوم ، ويعذبها الأرق وتنحط حالتها الصحية والمعنوية ، حتى توشك أن تجن ، وفي غمرة أحزانها ومتاعبها تخرج يوماً إلى المدينة ، وتتجه إلى الكنيسة الكبرى ، وتلقى بنفسها أمام القس تطلب الاعتراف . ويكشف الأب سيلاً أنها بروتستانتية المذهب ، فيتردد في قبول اعترافها ، ثم يعود ويقبل أملاً في أن يستطيع حملها على اعتناق الكاثوليكية فيما بعد ؛ وتفرغ للقس آلامها وأحزانها ، وتخرج من لدنه متعثرة مترنحة ، ويطبق عليها ظلام الطريق ، وتسقط مغشياً عليها بين ذراعى طبيب انجليزي شاب اسمه جون بريتن ، فينقلها إلى بيته ، ويعهد بالعاية بها إلى أمه الطيبة العجوز .

وترتبط لوسى مع أسرة بريتن بصداقة حارة تنقلب على ممر الأيام حباً طاعياً للطبيب الشاب ، ولكنها تكشف حبه لجينفرا فانشو الطالبة الخليفة بمعهد مدام بك ، التي سبق أن قابلتها على ظهر الباخرة ؛ فتكبت لوسى حبها له ، وتبقى صابرة ترقب مجرى الأمور ، وتثبت الأيام للدكتور جون عدم أهلية جينفرا له فيتحول قلبه عنها إلى بوليناهوم صديقة طفولته ، وترى لوسى استحالة حبه لها ، فتحارب عاطفتها ، وتتغلب عليها ، وتدفن خطباته الخمسة في حديقة المدرسة ، وبذلك تدفن حبها له إلى الأبد .

ويظهر في الميدان الأستاذ پول امانويل ، وتتصادم معه في بادىء الأمر ،

ويختلفان ويتشاجران كثيراً ، وفي النهاية يربط بينهما حب جارف عميق .
ولكن الأستاذ لا يستطيع الزواج من حبيبته ، لأنه عاهد النفس على عدم
الزواج ، وكرس ماله للفقراء والمحتاجين ؛ وتحس مدام بك بالعاطفة الجديدة
التي نشأت بين ابن عمها والمدرسة الإنجليزية ، فتبذل الجهد دون استمرار
هذه العاطفة ، وتتجسس على لوسى ، وتطاردها بكل أنواع المطاردة ، فيهجر
امانويل المدرسة ، ويقرر السفر بعيداً ، لحزن لوسى ويأسها .
وفي اللحظة الأخيرة يعود الأستاذ لوداع حبيبته ، ويخبرها أنه أعد لها
مدرسة كاملة ، لتديرها وترتق منها حتى يعود بعد سنوات ثلاث ، ويعدها
بالزواج ، فتبقى في انتظاره فرحة سعيدة .



هذا هو مجمل القصة التي صبت تشارلوت فيها حقدتها على رأس مدام
هيجير ، فانتقمت من المرأة التي تكرهها أفضع انتقام ، ورسمتها في صورة
قبيحة ، أشركت العالم معها في احتقارها والغض منها .
فدام بك — أومدام هيجير — امرأة وضيعة الأخلاق ، بغيضة الطباع
وفي الليلة الأولى لوصول لوسى سنو ، تسالت إلى حجرتها تحت جنح الظلام
وتصفحت أوراقها ، وقرأت خطاباتها ، وطبعت مفاتيحها على شمع لصنع
نظيرها ؛ فالتجسس فيها نقيصة لا علاج لها .
ومدام بك سيدة أنيقة الملبس ، متناسبة التقاطيع : لها قامة قصيرة ممتلئة ،
ووجه مستدير يشوب بياضه حمرة خفيفة ، وعيناها زرقاوان صافيتان ،

ومظهرها متزن هادىء ، ولكن على وجهها ترتسم تعبيرات تنافى هذا الهدوء ،
فجبهتها الضيقة لا تدل على ذهن متسع ، ونظرها المتغلغلة لا تعرف الرقة ،
ولا تعبر عن النيران التى تشتعل فى القلب ، وشفاتها الرقيقتان لا تنمان على
رفق وشفقة .

وكانت ناعمة المظهر ، ويقال إنها لم تؤنب يوماً مدرسة اللغة الانجليزية
السابقة على إدمانها الخمره وخروجها على النظام ، وإهمالها العمل ، ومع ذلك
طردتها شرطرة يوم وجدت من تحل محلها . وهكذا كانت دائماً لا تجد
أخطاءً فى مدرساتها ما دامت فى حاجة إليهن ، ومتى زالت هذه الحاجة ،
طردتهن وبدلتهن فى قسوة لا مثيل لها ؛ فكانت الوجوه تجيء وتختفى فجأة
دون أن يعرف أحد سبباً لذلك أو إيضاحاً .

وتسير المدرسة فى دقة ونظام بفضل أساليبها العجيبة فى التدخل
والتجسس ؛ ومع ذلك كانت تعرف قيمة الأمانة ، وتقدرها فى الآخرين ،
وتعتبرها صفة نادرة ما انفقت مع مصالحها الخاصة ، وأغراضها الشخصية .
وكثيراً ما كانت تعلن تأففها من الأسلوب الذى تسير عليه ، ومع ذلك
لا تكف أبداً عن تفقد المدرسة فى الظلام ، والانتقال خفية بين الحجرات ،
لتختلس النظر من كل ثقب ، وتسترق السمع من كل باب .

ولدام بك مساعدات فى هذا العمل البغيض ، ولكنها تعرف قيمتهن
الحقيقية ، فقصرت جهودهن على التجسس فقط ، وإذا أرادت شيئاً نبيلاً ،
بحثت فى محيطها عن شخصية شريفة تستطيع القيام به . وكلمة السر عند

مدام بك ومحور كل أعمالها ، وخلاصة حياتها المصلحة الخاصة ؛ ولم يكن عندها للشعور وجود ، ولم يستطع أحد أن يكسب ودها عن هذا الطريق ، « فمحاولة لس قلبها وتحريك شعورها باعث على إثارة كراهيتها ومقتها ، لأن مثل هذه المحاولات تثبت موت قلبها وتذكرها بالنقطة المتحجرة بين جنبها » .

أعمالها فهي قديرة عليه إلى أبعد حد ، وتخصص جهداً كبيراً للاحتفاظ بمستوى مدرستها ؛ ولكن قوتها وجبروتها أوسع من أن يفرغ في معهد صغير ، وكان يجب أن تحكم أمة كبيرة ، أو تقود مجتمعاً ثائراً « فهي حازمة عاقلة قوية » لا ينتصر أحد عليها ، أو يثير أعصابها ، أو يستنفذ ذرة من صبرها . وبهذه الصفات القبيحة القوية استطاعت مدام بك أن تجعل حياة لوسى سنو جحيماً مستعراً ، وتجسست عليها ، لتحول دون سعادتها القلبية مع بول إمانويل . وعلى لسان لوسى تعلن تشارلوت حقدتها على زوجة أستاذها ، وتكشف عن شعورها نحوها :

— اتركيني وحدي ... ابعدي يدك عن حياتي وعن متاعبي ، ففي يدك الصقيع والبرد ، وفي أنفاسك السم والمرض .
وفي مكان آخر تقول :

— وبدت أمانى على حقيقتها ، وأصبح القناع الذى يحجب وجهها ، والثوب الذى يغطى جسمها ، شبكة رثة كثيرة الخروق ، استطعت أن أرى خلالها مخلوقاً لا قلب له ، ملىء بالشهوة ، ولا خير يرتجى منه .

أما الأستاذ بول إمانويل — أو مسيو هيجير في الحقيقة — فقد
قست عليه أولاً بعض القسوة ، وأبانت أخطاءه ونقائصه ، ثم التمت
المعاذير لتلك النقائص والأخطاء ، وعزت الكثير منها إلى تربيته
الكاثوليكية المتطرفة ؛ واتهمت هذه الفرصة ، فحملت حملة شعواء على
النظام البابوي ، ودافعت عن البروتستانتية ورفعتها إلى السماء . وكانت
لوسى سنو تعرف كل هذه الأخطاء ، ومع ذلك أحبت أستاذها حباً جارفاً
لأنها تبينت حقيقة المعدن النقي الذي يخفى وراء القشرة الخشنة الظاهرة .

وبول إمانويل أسمر اللون ، صغير الحجم ، حسن المظهر ، حاد التقاطيع
وشعره أسود غزير ، وجهته عريضة متطبة ؛ ولكنه قلق ، ومزاجه
ناري متقلب ، فتارة يهدأ كنسيم الربيع ، وتارة أخرى يثور في مثل
قصف الرعد ؛ والمعارضة أبغض شيء إلى نفسه ، اللهم إلا إذا كان
الشخص الذي يعارضه يملك قوة كافية لإخفاه ،

ولبول إمانويل شخصية طاغية ، وثقة بالنفس لا حد لها ، فأمنت له
بذلك مدام بك ، وتركته يصول ويجول في المدرسة ، دون حسيب أو
رقيب ، فنبل أخلاقه يجعله أهلاً « لأن يتعهد فرقة كاملة من أجل النساء ،
فلا يصيب إحداهن ضرر تحت قيادته » . ومع أن معظم التلميذات البلجيكيات
أبعد ما يمكن عن نقاء الذهن وطهارة النفس ، فإن تجرؤ واحدة منهن
أن تكشف عن حالتها الباطنة في حضرته ، أو تتحداه بالابتسام أثناء

غضبه ، وعندما ينقلت وجهه ، ويرتدى قناع النمر ، يسود السكون ، ويحل
الرعب في قلوب الجميع .

والغيرة صفة ملازمة له ، ومع أنها مكروهة في الغير ، فهي محبوبة فيه
لأنها تثير طبيعته ، وتوقظ روحه ، وتلقى مختلف الأضواء على وجهه الجامد
الواجم ؛ وغضبه ممتع كل المتعة ، لخلوه من الغش ، أو سبق الإصرار ،
ونقاؤه التام من النفاق .

وبول إمانويل تقي بمعنى الكلمة ، يمارس حرمان النفس ، ويلتذ
بالتضحية من أجل غيره ، ويرى أن النساء حريات بمثل هذا الشعور ،
ويريد أن تكون كل واحدة منهن رسول الرحمة والسلام ؛ وعندما علم
أن لوسى سنوقضت العطلة المدرسية في صحبة فتاة مريضة بلهاء فخطمتها تلك
الصحبة جسما وروحاً ، قال لها :

— إذا قلبك ضعيف ، وتنقصك الشجاعة ، وربما الإحسان ،
وصفاتك لا تناسب أخت الرحمة .

— لست أدرى ، ولكنني عنيت بها على قدر الإمكان ، فلما جاءت
خالتها ، وأخذتها من المدرسة أحسست براحة كبرى .

— إنك أنانية ، وفي المستشفيات نساء يقفن حياتهن على خدمة مئات
من أولئك البأسات ، ولكنك لا تقوين على ذلك .

— هل تقوى أنت ياسيدي ؟

— إن النساء يجب أن يتفوقن على جنسنا الأناني الخشن ، المعرض للزلل ، بقوة تمكنهن من أداء هذه الواجبات .

— لقد غسلت جسمها ، ونظفتها وأطعمتها ، وحاولت جهدى أن أسليها ، ولكنها بدل أن تجاذبني أطراف الحديث ، كانت تقلب فمها فى أشكال عجيبة !

— أو تظنين أنك بذلك قد قت بعمل عظيم ؟

— لا ، ولكنى فعلت أكثر مما يمكننى أدائه :

— إذاً فقوتك المعنوية محدودة ، ولذلك مرضت فى خدمة فتاة بائسة مسكينة .

وهو سريع الغضب ، نارى المزاج ، أقل الحركات تشير لهيب مزاجه ، فتنهمر أقصى الشتاأم من فمه ، ليقصص من أهانه بهذه الحركة ، فإذا ما استقرت الشتاأم فى هدفها ، وأحدثت الأثر المطلوب ، زال غضبه على الإثر ، وانتشرت على وجهة دلائل الرقة والندم ، ويطلب الصفح والمغفرة فهو رجل « إن لم يكن طيباً فهو ذو صفات طيبة عدة » .

ولم يكن للمال قيمة عنده ، فهو ينفق دخله وراتبه على الفقراء والمحتاجين ولا يبقى لنفسه غير القليل الذى لا يكاد يكفى طعامه الضئيل . وفى يوم عيد ميلاده يطلب هدية من كل مدرسة وطالبة ، ولكن خاتماً ماسياً ، أو علبة سعوط فضية ، ما كانت ترضيه قدر زهرة صغيرة ، أو هدية تافهة القيمة . وكان يشبه بونابرت فى حبه للسيادة والسيطرة ، وتدفعه هذه الصفة ،

لأن يعطف على من هم دونه ثقافة وعلماً ويرضيه ويسره دائماً أن يجد في
دروس لوسى أخطاء يصححها ، وعند ما كانت تكتب موضوعاً صحيحاً ،
يثور غضبه ، وتجمد عواطفه ، وتقسو كلماته ، لأنه يشعر إذ ذاك أنها لم تعد
في حاجة إلى إرشاده . وكان يشاجر كل امرأة مثقفة ، ويطرد كل مدرسة
نابعة في المدرسة ، إن لم تصبغ نبوغها بالخضوع له ، وإكبار مواهبه . ولقد
طرد فعلاً مدرسات عديدات ، وعند ما سمع بعد ذلك أنهن يقاسين شظف
العيش ، قلب الدنيا رأساً على عقب من أجل أن يجدلن عملاً جديداً أفضل
مما حرمن إياه .

ولمسيو پول أمانويل غرام شديد بالتعمق في دراسة النفوس ، فتراه
يتأمل وجه الطالبة أو المدرسة بنظرة متغلغلة تصل إلى الذهن والقلب ،
بحثاً وراء غرور أو كبرياء أو خداع قد تنطوى عليه النفس ؛ وويل لمن
يجد في قلبها ذرة من هذه المساوىء . أما إذ أخفق في الوقوف على تلك
الذائل ، جعل يجرب طرقاً جديدة في الاختبار ، وكلما خابت طريقة أتبعها
بأخرى ؛ وعند ما تثبت أقصى التجارب وأعظمها نقاء ذهن فريسته ،
وطهارة قلبها ، يتركها تعبئة محطمة ، وقد امتلأت نفسه تقديراً وإعجاباً بالمعدن
التي صنع منها .

ومهما غضب أمانويل ، ومهما ثار وأهان ، فانه يكفي أن يبتسم ، ويمد
يده مصالحاً ، فلا يستطيع المرء أن يرد يده خائبة .

جدت في حياة تشارلوت برونتي أحداث لم تكن منتظرة أو متوقعة ،
فقد كان مستر نيكولز مازال يعمل قساً في أبراشية هاوارث منذ ثمانية
أعوام ، وهو نفس الرجل الذي كرهته الكاتبة طويلاً ، وتناولته بلسانها
اللاذع ، وقست عليه في خطابها لإلين ، وقالت عنه في تلك الخطابات :
إنه ضيق الذهن ، ثقيل الظل ، لا يستطيع أن تجد فيه ذرة من الطيبة أو
النبل ، فضلاً عن أن أهل الأبراشية يمتقونه جميعاً ، وعندما سافر إلى
إرلندا لقضاء عطلة ، تمنوا لو أنه بقي هناك ، ولم يتعب نفسه بالعودة .

وكان هذا هو الشعور الذي تحمله تشارلوت له في بادئ الأمر ، ولكن
هذا الشعور رق على مر الأعوام بعض الشيء ، فلما كتبت قصتها « شيرلى »
وهجت القساوسة الثلاثة ، لم تقسُ عليها قسوتها على زميليه ، ونقدته كثيراً
تحت اسم المستر ما كارثي ولكنها اعترفت في نهاية القصة بأدبه
وضميره الحى .

ويرجع هذا التحول في قصة تشارلوت إلى ما لاحظته من اهتمامه
بها ، وما أحست به من عطفه عليها ؛ فقد كان نيكولز يكن لها في

الواقع احتراماً عظيماً ، انقلب مع الزمن الى حب عميق ، وتردد كثيراً في أن يفتاحها بأمر هذا الحب خشية أن ترفض ، فقد كانت صورة مستر ما كارثي ما تزال ماثلة في ذهنه ، وأخيراً تغلب على تردده ، وجمع أطراف شجاعته ، واتسوى أن يحدثها بالأمر .

وفي يوم من أيام شهر ديسمبر عام ١٨٥٣ ذهب القس لتناول الشاي في دار الوافه ، فكتبت تشارلوت الى إلين تصف ما حدث إذ ذاك :

« ... بعد تناول الشاي انسحبت من حجرة الطعام ، وبقي مستر نيكولز مع والدى حتى التاسعة مساءً ، ثم سمعت باب الحجرة يفتح ، كأن الضيف في طريقه الى الانصراف ، وتوقعت أن أسمع صرير باب الخروج ، ولكنه توقف في الممر ونقر على بابي ، وفي سرعة البرق توقعت ماسياًني : ودخل عليّ ، ووقف أمامي ؛ ومن السهل أن تدركي ما قال ، أما الطريقة التي تحدث بها فلن يمكنني أن أنساها مدى الحياة ؛ كان يرتجف من الراس إلى القدم ، وقد اصفر وجهه ، وانخفض صوته ، وتقطعت الكلمات على شفتيه ، فعرفت الثمن الذي يدفعه الرجل للافصاح عن شعوره ، وهو غير واثق من النجاح »

وفي هذا الأسلوب الحار كشف نيكولز عن حبه لتشارلوت ، وطلب منها أن تشاركه في حياته ، وتزوج منه ، فاستمهلته الى اليوم التالي ، فانصرف هادئاً . ودخلت إلى والدها في حجرة مكتبه ، وحدثته بالأمر فثار الوافه ثورة عظيمة ، وانفجرت براكين غضبه ، وانهال على حبيبها شتماً

وتحقيراً فقد كان مستر بروتني يغفر كل طيش ما عدا الزواج ، ولأهون على نفسه أن يدفن بناته واحدة فواحدة ، من أن يسمح لإحداهن بالزواج . واربد وجهه لفرط الغضب ، واحمرت عيناه وبرزت العروق من جبهته ، فوعده تشارلوت بالرفض ، وانصرفت من الحجرة على عجل وكتبت الى إلين تقول :

« ... لو أنني كنت مغرمة بمستر نيكولز لنفد صبري أمام الشتائم والنعوت التي نسبها والدي اليه ، وعلى ما أنا عليه غلى الدم في عروقي لهذا الظلم الفادح »
وكانت نتيجة الرفض ، أن استقال مستر نيكولز من عمله في الأبراشية ، وقرر أن يغادر المكان .

وفي خلال الفترة التي سبقت الرحيل انقطع الحب عن الطعام ، واستسلم إلى الحزن والوجوم ، وتحدث إلى برنتي العجوز في خشونة لا مزيد عليها ولم يبذل جهداً في سبيل التغلب على الصدمة ؛ وفي يومه الأخير ، وقف على منصة الكنيسة يودع أهل البلدة ، فلما رأى تشارلوت تجلس بينهم احمر وجهه ، وطفرت الدموع من عينيه وبكى الحاضرون شفقة عليه .

وتأثرت تشارلوت من الموقف ، ووثقت من حبه لها ، فعقدت العزم على تحقيق أمنيته ، ولكنها لم تشأ أن تتجدى والدها جبراً ، وبدأت تعمل في سكoon وهدوء لتصل إلى بغيتها . وسافر نيكولز كما تقرر من قبل ولكن المراسلات ظلت قائمة بين الحبيبين ، وبعد بضعة شهور عاد القس لزيارة

هاوارث سرّاً ، ونزل مرتين ضيفاً على زميل له ، وهناك قابلته تشارلوت
في خفية عن العيون .

وفي أوائل عام ١٨٥٤ خضع مستر بروتني للإلحاح ابنته ، ورضى بالزواج
كارها ، فأعلنت الخطبة ، وعاد القس إلى عمله القديم ، فساد الأبراشية
مرح لم يعهد من قبل ، وانهمكت الكاتبة الكبيرة في إعداد ملابس العرس ،
وأعادت طلاء جدران الحجرات ، وجددت الكثير من الرياش ، وتكتمت
أمر الزواج ، ولم تدع أحداً لحضوره غير إلين ناسي ومس وولر ناظرتها القديمة
وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر يولية عام ١٨٥٤ زينت الكنيسة
بالورود احتفالاً بالزواج ، وارتدت تشارلوت ثوب العرس الأبيض ، ووقفت
تنتظر والدها ، ليقودها إلى المذبح كما هو المتبع ؛ ولكن الوافه قرر في اللحظة
الأخيرة ألا يفعل ، وأغلق حجرة المكتب عليه ، ورفض أن يساهم في
عمل يعتقد طيشاً مجسماً ، فخلت مس وولر مكانه ، وعلى ذراعها اتكأت
تشارلوت إلى الكنيسة ؛ وعند ما انتهت مراسيم الزواج ، سافر العروسان
إلى أرنلدا ، لقضاء شهر العسل في وطن نيكولز ، وبين أقاربه وأصدقائه .

أحدث الزواج تغييراً عظيماً في أخلاق تشارلوت بروتني ، فأنحلت عقدتها
النفسية ، وزايلها شعورها بالنقص ، ذلك الشعور الذي أظلم حياتها منذ
الطفولة ؛ وأصبحت امرأة أخرى لا تمت إلى الأولى بصلة : فهي
كريمة الأخلاق ، حلوة الشمائل ، تحب الناس ، وتعطف على الغير ،
وتميل إلى تعرف الفضائل قبل الأخطاء ، وتجد للنقائص عذراً مقبولاً ؛

وامتلات خطاباتهما بمدىح بعد هجاء ، ورقة بعد غلظة ، ونال نيكولز من هذا المدىح نصيب الأسد ، وأصبح في نظرها أطيب الناس ، وأنبلهم ، وأشجعهم ، وأقربهم إلى الله ، وكلها إحساسات جديدة لم تعرف في تشارلوت من قبل ، وطبيعى أن تنقلب هكذا ، بعد أن أصابت من الحياة ما كانت تنشده سرّاً طيلة حياتها .

وغرقت تشارلوت في حب زوجها إلى مفرق رأسها ، ولم تعد تعرف الحذر في العاطفة ، وهو ما كانت تنصح به صديقاتها ، وأصبح رأى نيكولز رأيها ، وحكمه حكمها ، ومن يرضى عنهم أصدقاؤها ، ومن لا يحبهم أعداؤها ؛ وعند ما يدعوها الواجب إلى زيارة مريض فقير ، تلبى الدعوة مترددة ، لا خوفاً على نفسها ، ولكن خشية أن تنقل العدوى إلى زوجها الحبيب . وفي غمرة هذه السعادة هجرها الوحي ، وتوقف قلبها عن التأليف ، وحاولت الكتابة كثيراً فلم تستطع ، فكانت تمزق الورق بعد أن تكتبه ، ولم تنتج شيئاً جديداً إلا صفحات معدودات من قصة لم تتمها .

وفي أواخر عام ١٨٥٤ خرج الزوجان معاً للسير في البرارى ، فانهمرت الأمطار فجأة وابتلت ملابس تشارلوت ، وعادت إلى البيت ترتجف لقرط الحمى ، ولم يفارقها السعال بعد ذلك ، فأنحطت صحتها ، وزاد ضعفها ونحوها وجاء الطبيب لفحصها فأعلن أنها عوارض الحمل ، فزال القلق ، وعزا الكل مرضها إلى المظاهر الطبيعية لحالتها الراهنة ، ولكن صحة تشارلوت ساءت سريعاً ، فاعتكفت في فراشها ، وقد عجزت عن كل شيء حتى كتابة

الخطابات ، ولم تخط في هذه الفترة غير بضع كلمات بالقلم الرصاص .

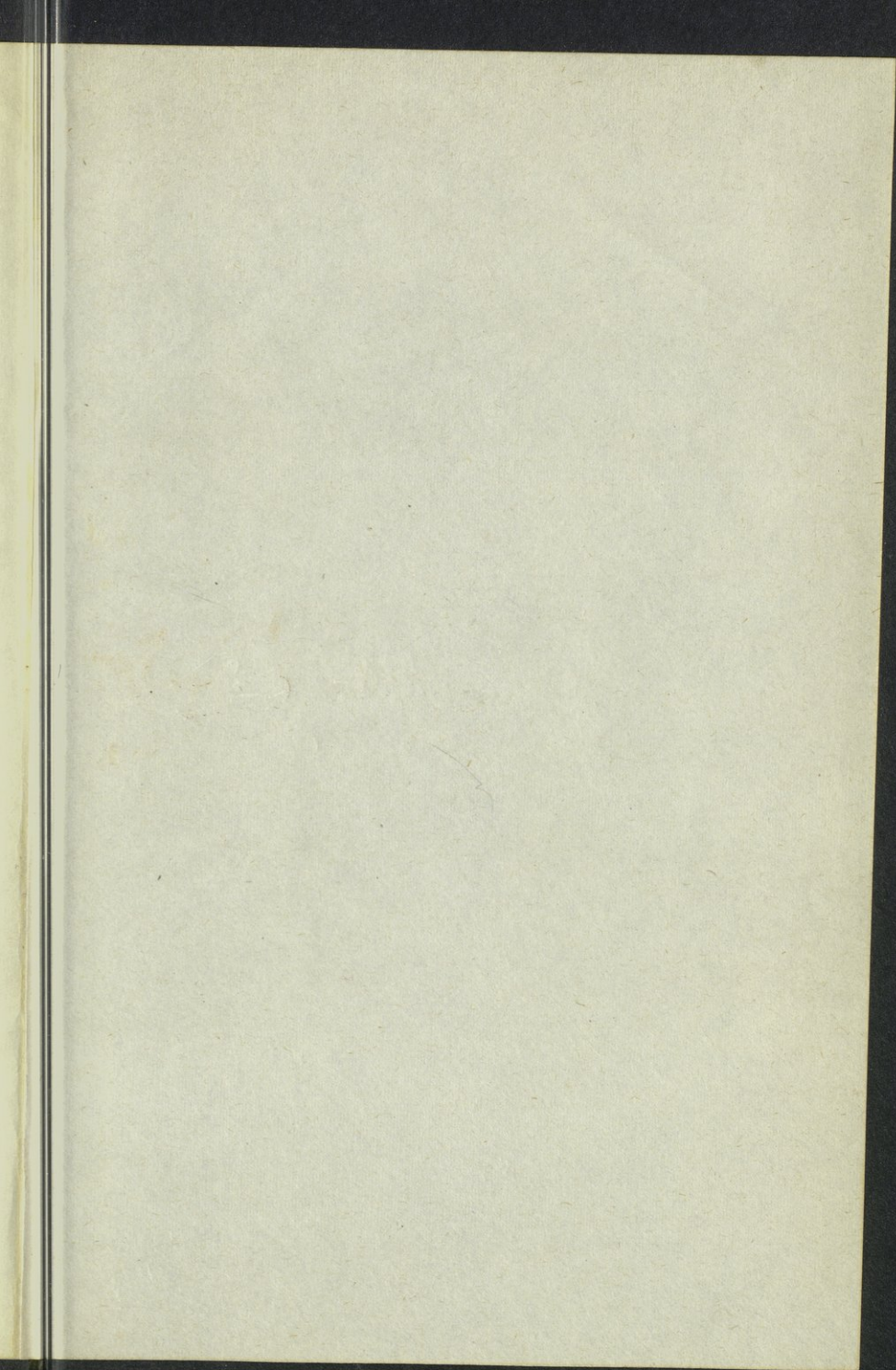
وفي الأسبوع الثالث من شهر مارس عام ١٨٥٥ زادت وطأة الحمل ، وانتهكها القيء والضعف ، فتخاذل قلبها ، وغابت عن وعيها ، واستسلمت إلى هذيان مستمر . وفي اليوم الثلاثين من هذا الشهر تنهت تشارلوت من غيبوبتها ، وعادت إلى نفسها ، فوجدت الحجرة تموج بأهل الدار ، ورأت الدموع تتساقط من العيون ، وسمعت الأصوات تتردد في خفوت ، وعرفت أنها تموت ، فزعمت ، ونظرت إلى زوجها بحب وعطف ، وقالت :

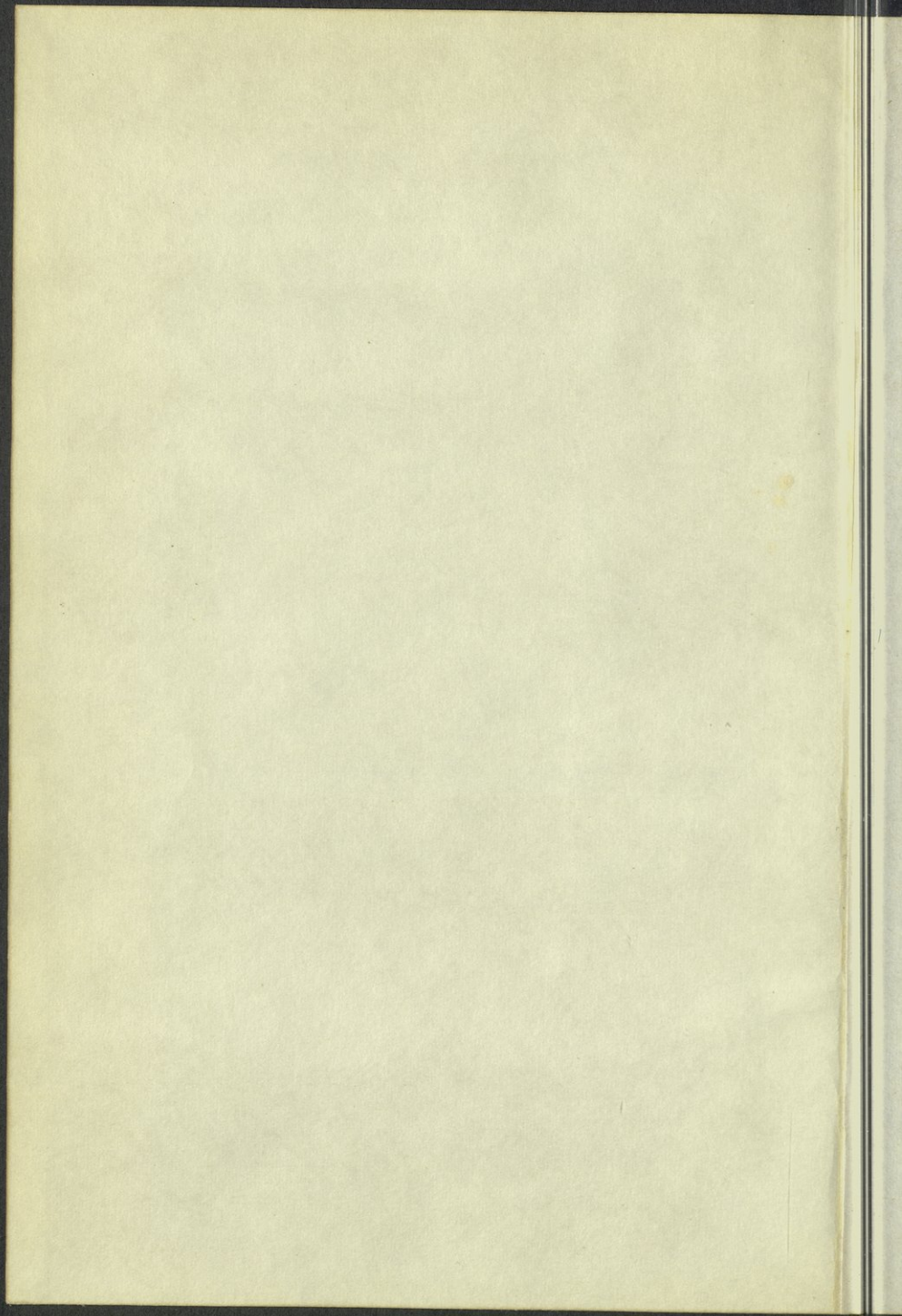
— لن أموت ، أليس كذلك ؟ لا أظن أن الله يفرق بيننا ، ونحن في مثل هذه السعادة الشاملة .

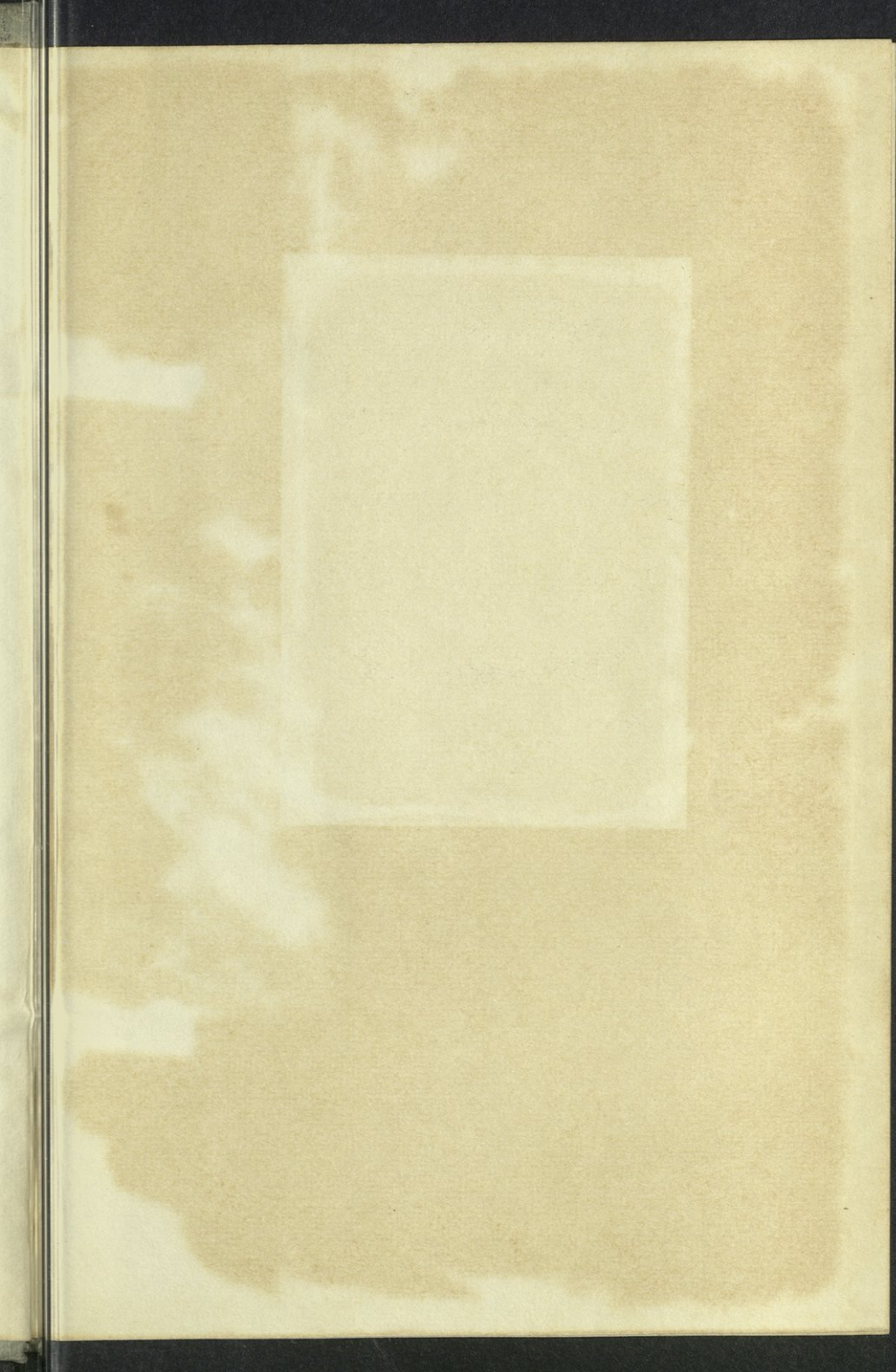
وكانت هذه الجملة هي آخر ما لفظت به ، وصعدت روحها إلى بارئها قبل بزوغ الفجر ، وهي في التاسعة والثلاثين من عمرها ، وبموتها أفل آخر نجم في سماء أسرة برونتي ، وقعد الأدب الانجليزى عبقرية نادرة ، وموهبة عظيمة ، سيظل تتاجها خالداً على مر الزمن .

ولم يدع أحد لحضور الجناز ، ودفنت تشارلوت برونتي في صمت ، ووقدت في حضرة زوجها وأبيها في مقبرة الكنيسة بين أمها وأختها . وبكتها فتاة عمياء صغيرة ، طالما أحسنت إليها ، وطلبت من الحاضرين أن يقودوها الى الكنيسة بعد ذلك ، لتشارك في الصلاة على من أحبت .

1927/01/17.9







السعيد، امينة

وحي الغزلة...

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01031871

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

